العددان الثالث والرابع
« السنة الحادية عشرة »
(ذى الحجة: ربيع الاول سنة ١٣٦٤ — يناير : ابريل سنة ١٩٤٥)

صحيفة دار العلوم

ع ١ ح ١٩٣٤ م

تصدرها جماعة دار العلوم
كل ثلاثة أشهر

المدير
محمد نجيب حتاتة

رئيس التحرير
محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية
ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى
المدرس بدار العلوم
مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى	٢٠ قرشاً
خارج القطر	٣٠ قرشاً
ثمن العدد	٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج ١٦٣

إِنَّ بَاحِثًا مُدَقِّقًا لَوْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ أَيْنَ تَمُوتُ
اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَأَيْنَ تَحْيَا، لَوَجَدَهَا تَمُوتُ فِي كُلِّ مَكَانٍ
وَتَحْيَا فِي دَارِ الْعُلُومِ"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

تخليد ذكرى الخديوى اسماعيل

احتفلت مصر بذكرى مرور خمسين عاما على وفاة المغفور له الخديوى اسماعيل باشا ، فقامت جميع المعاهد العلمية والهيئات المختلفة تنوه بما كان لهذا العاهل العظيم من مآثر فى شتى النواحى العلمية والسياسية والاجتماعية فى مصر ، وتتلو على الجيل الحاضر صفحات خالدة من التاريخ المصرى الحديث الذى كان الخديوى اسماعيل قطب دائرته وواسطة عقده

ولقد كان عهده مرحلة ذات أثر عظيم فى مصر ونهضتها الحديثة بما رفع من مقامها السياسى ، وما حفز من نشاطها الاجتماعى ، وما ثبت من دعائم قوميتها ، وماعنى به من نشر التعليم واشاعة الثقافة ، وما أنشأ من مؤسسات عظيمة الشأن فى حياة البلاد ، الى غير ذلك مما جعل مصر زعيمة الممالك الشرقية وحلقة الاتصال بين المدنيتين الشرقية والغربية .

وفوق ذلك كان عصر اسماعيل حافلا بشتى مباهج الحياة فكان ذلك حافزا للادب ومادة خصبة لموضوعاته وفنونه وبدأ الادباء يسايرون الحياة المصرية ويصورون مظاهرها ، وبذلك اتجه الادب الى ناحية لها شأنها وهى تعبيره عن الحياة ومافيها .

* * *

وقد رأت جماعة دار العلوم أن خير ماتشترك به فى ذكرى الخديوى اسماعيل أن تذيع بعض مآثره فى محاضرات يلقيها أعضاؤها فقام ثلاثة من فضلائهم باعداد بعض الموضوعات فى مختلف النواحى الادبية فى عصر اسماعيل . وآثرت الجماعة أن تلقى هذه المحاضرات بناديها فى موسم الامتحانات العامة حين تجتمع جمهرة المعلمين فى القاهرة

ويسر صحيفة دار العلوم أن تنشر هذه المحاضرات راجية أن يتابع الافذاذ من رجال دار العلوم بحوثهم فى الادب واتجاهاته ونصيب الحياة المصرية منه فى هذه الفترات من عصرنا الحديث .

اسماعيليات أبي النصر [1]

للأستاذ السباعي بيومي

تمهيد

من أبو النصر ؟ وما الاسماعيليات ؟

أبو النصر مصرى عربى قرشى حسينى نشأ أوائل القرن الثالث عشر الهجرى حيث كان يقيم أهله وذووه بمدينة منفلوط من أعمال مديرية أسيوط ، فحفظ القرآن وتعلم مبادىء العلوم ثم نزح منها إلى الأزهر الشريف بقاهرة العزيز يلقن الشريعة ويدرس العربية ، فبدت عليه مخايل الأدب والاستعداد لقرض الشعر ، ولكنه استمر فى الطريق المرسوم إذ ذاك للدراسة الأزهرية حتى صار من كبار العلماء الذين امتازوا فوق علميتهم الدينية والعربية بالمقدرة على انشاء النثر الجيد وقرض الشعر الأجود ، فزاد ذلك من مكانته وعظم من شأنه حتى ان المغفور له محمد على باشا الكبير والى مصر لما طلب اليه السلطان عبد المجيد أن يبعث الى القسطنطينية بعض العلماء مع الأمراء ليشاركوا عظمته فى الاحتفال باعذار أنجاله كان السيد على أبو النصر ثانى اثنين أرسلا من العلماء ولم يكن الأول إلا الشيخ التميمى الحنفى مفتى الديار المصرية إذ ذاك ولعل هذا كان بحكم وظيفته ، وكان ذلك سنة ١٢٦٢ ﻫ ، ومن هذا نبه شأن أبى النصر وتوثق اتصاله بالبيت العلوى باقى أيام محمد على ، وكان من المعجبين بأعماله المغتبطين باصلاحاته لأنه كان رحمه الله كما قال فيه أحمد خيرى باشا ناظر المعارف العمومية وهو يقدم لديوانه «محبا لنشر أنوار التربية فى الوطن وسكانه،

---

(١) محاضرة ألقيت في نادى دار العلوم يوم الاربعاء ٢٧ من يونيه سنة ١٩٤٥

مشوقا محرضا فى ذلك بكل ما كان فى امكانه ، وكان فى حب الوطن بأعلى مكان ، يحب أن يراه قبل موته مكرما مسموع الصوت ، ذا حرية معتدلة ، وقوانين عادلة ، ورعاية حقوق لجميع أهله شاملة ، ولم يكن محمد على إلا عاملا فى سبيل ذلك كله بهمة لا تعرف الكلل ، وعزم لا تعتريه سآمة ولا ملل ، ولهذا أصبح أبو النصر شديد التألم بادى الحسرة والتبرم حينما وقفت هذه الحركة الدائبة أيام عباس وسعيد ، وكان لا يزال يقول « إلام ننحرف عن سواء الطريق ، وحتام فى سكرة الغفلة نهيم ولا نفيق ».

ولكن كان من فضل الله عليه وعلى مصر أن ذلك العهد لم يطل إذ تولاها عزيزها اسماعيل ، فسره وأرضاه أن نفخ فى تلك الحركة من جديد فأعاد فتح ما كان أغلق من مدارس أنشأها جده وأخذ ينشىء كثيرا غيرها فى كل فروع التعليم حتى غصت القرى بالكتاتيب ، وبلغت المدارس الابتدائية بالعواصم ٢٣ ووسعت الثانونيتان وهما الخديوية بالقاهرة ورأس التين بالاسكندرية كل من يريد التجهز للتعليم العالى كما بلغت المدارس العالية ٤ والحربية ٨ والخصوصية ٥ والصناعية ٤ ، ثم فطن الى ضرورة تعليم البنت على كراهية الشعب لتعليمها فأوعز الى حرمه جشم أفت هانم أن تؤسس مدرسة السيوفية للبنات فأسستها واحتضنتها وكان يحضر معها الاحتفال بامتحاناتها حتى صار عدد تلميذاتها ٤٠٠ ، وقد هم ينهض بمصر من نواح أخرى ذات شأن ، فحول ديوان المعارف الى نظارة ، وأنشأ دار الكتب ودار الآثار العربية ، وعنى بمطبعة بولاق ، كما أنشأ المدرج العام للمحاضرات بدرب الجماميز ، ودار الاوبرا للتمثيل ، والجمعية الجغرافية ، وأكثر من البعثات وشجع الصحافة وقرب الأدباء فخلق بذلك كله دولة للأدب فى مصر تفيأ ظلالها المصريون والسوريون وتنقل على أفنان دوحتها الكتاب والشعراء ، فكان صاحبنا أبو النصر أكبر مشيد بهذا الفضل ، وأعبق معطر لأشعاره بفوح ذلك الذكر ، وما أحس اسماعيل منه ذلك حتى قربه اليه وأدناه ، وجعله على الرأس من أدباء وقته وشعراء عصره ، وباهى به وبمصر أدباء دار الخلافة وشعراءها حين استصحبه معه فى رحلته العظيمة إلى القسطنطينية سنة ١٢٨٩ ، فقد طلب اليه وقد وافق دخولهم الاستانة فى هذه الرحلة عيد جلوس السلطان عبد العزيز إنشاء قصيدة فى مدحه وتاريخ عيد جلوسه فأنشأ

رائيته الباسقة التي منها .

تبسمت الأزهار عن اؤلؤ القطر ففاح شذاها فى الحدائق كالعطر
وخط يراع الغصن إذ مال ظله بشائر قد لاحت على صفحة النهر
وزفت بروض الابتهاج عرائس لها كلما ماست نثار من الزهر
وغنت على عود الأراك حمامة تجاوب إلفا شفه ألم الهجر
تجاذبه بالطوق طورا ، وتارة تطارحه شكوى الغرام فلا يدرى
وبالشمس طاف البدر ، فاستجلها ضحى
وان شئت لاتسأل عن الشمس والبدر
وواصل جواد الجد واسلك سبيله وصابر فان المرء يعرف بالصبر
وشد نطاق الحزم فى كل رحلة ونقل ركاب العزم فى البر والبحر
ولج كل فج وانتهز كل فرصة وعول على الاقدام فى السر والجهر
ولا تخش ارهاص الحوادث واتئد ودعها كما قالوا سماوية تجرى
وعرج على دار الخلافة كى ترى جمال محياها ومنظرها البدرى
وصف ما تعالى من بديع صفاتها وحدث بما تهواه عن دمية القصر
ودعنى من الدنيا سواها فاننى سلوت السوى لولا اشتياقى الى مصر
دخلت حماها يوم عيد جلوسها فقابلتها بالشكر منشرح الصدر
وسرحت فى تلك البدائع ناظرى فملت الى خلع العذار بلا سكر
ولاحت لأنس العيد أجمل زينة ترنح أعطاف المليحة فى الخدر
فبت على حال تسر أولى النهى أنزه أفكارى الى مطلع الفجر
وأصبحت لاأهوى سوى مدح ملكها وذكر مزاياها وجناتها الخضر
مليك اذا لاحت كتائب جنده ترد شياطين الغواية بالقهر
خليفة خير الخلق من باجتهاده غدت عصبة الاسلام مشتدة الأزر
أفاد العلا جاها وعزا مؤبدا وألبسها من مجده حلل الفخر
وأحيا لاحياء العلا كل دارس فأضحت قلاع الثغر باسمة الثغر
وجدد فى عهد قريب بواخرا بها قوة الاسلام محكمة الأسر

له الله كم أبدى وأبدع فكره مآثر تدعونا الى الحمد والشكر
وان قيل فى التاريخ فضل لسابق فعبد العزيز الآن أسبق للبر
فهنيه بالبشرى سرورا وبهجة بعيد جلوس سره أبدا يسرى
وهأنا فى البشرى أقول مؤرخا جلوسك عيد الدهر أم ليلة القدر

فهذا الشعر الذى اختص به أبو النصر اسماعيل العظيم فى كثير من المناسبات والذى سجل فيه أعماله الخالدة فى كثير من المشروعات ، هو الذى نعنيه بالاسماعيليات وهو الذى نقف اليوم لنتكلم عنه تنويها بذكر شاعر عظيم وتخليدا لأعمال مصلح كبير أحيا موات مصر ، وجعلها بعبقريته درة لامعة على جبين الدهر .

١ - أبو النصر ومنشآت اسماعيل

كان أبو النصر معجبا كل الاعجاب بالهمة الشماء التى كانت لإسماعيل فى نشر التعليم لأنه كان كما قال خيرى باشا عنه آنفا « يحب نشر أنوار التربية فى الوطن » ومن ثم كان كما قال عنه « يستحسن مدرسة الاقباط بمنفلوط ويقول « ان التربية ستسعدهم وتصعدهم وترقيهم من الهبوط » وقد حقق الزمن قوله ولعله لهذه الغيرة منه على العلم ابتنى مدرسته الجميلة بمنفلوط بجوار جامعه الجليل كما ابتنى عدة منازل حبس ريعها عليهما ، وكأنه كان بهذا يشارك نهضة اسماعيل التعليمية بقدر ما أوتيه من مال ، ولقد كان هذا العمل مقدرا له من اسماعيل أوفى تقدير وشجعه عليه من قبله أكبر تشجيع وفى ديوانه مقطعة شعرية تنبىء عن هذا التقدير والتشجيع وماله من مكانة فى نفس اسماعيل نعنى بها الابيات التى قالها وقد شرفه الانجال الامراء توفيق وحسين وحسن بمنفلوط سنة ١٢٨٤ صحبة مراد باشا وعبد الله بك فكرى وسالم بك سالم فقال موريا بهؤلاء ومؤرخا تلك الزيارة المشجعة الميمونة وكان ذا ولع شديد بالتاريخ ومقدرة عظيمة عليه .

يامن سألت عن الاماجد من ومن أبشر بما ترجوه من فيض ومن
وخذ الجواب كما تريد مهذبا فتكون ذا جاه وتحظى بالمنن
توفيق باشا لن يزال ممجدا بين البريا والحسين أخو الحسن

في طالع الاسعاد أشرق نجمهم حازوا المعارف وارتقوا في كل فن
فهم الكواكب والخديوي بدرهم سعدت به الأوطان وابتهج الزمن
والفرع يتبع في المكارم أصله عملا بأن الفرض تتبعه السنن
لمرادهم يسعى الزمان ، ومدحهم فكرى به يسلو عن الرشأ الأغن
لازال ركبهم مصونا سالما من أعين الحساد سار أو اطمأن
جعلو السياحة للسماحة مظهرآ فبدت عوائدهم على أعلى سنن
وبمنفلوط أتوا فقال مبشري أرخ فبالأنجال تشريف الوطن

وبعد فقد جاء شعر أبي النصر سجلا لكثير من منشآت اسماعيل يشيد بها وبه ويؤرخها في زهو واختيال ،هذه فبريقة مغاغه التي انشئت سنة ١٢٨٠ يقول فيها مفاخرا مصانع أمريقه وكان يشرف عليها ولى العهد توفيق

أحيا العزيز الخديوي ملكه فبدت فيه بدائع لاتلفى بأمريقه
وفي مغاغة أنشأ بنية عظمت في عصرها وحباها الله توفيقه
فبريقة طالع الاسعاد أرخها فاقت بأسنى المباني كل فبريقه

ولما أنشأ اسماعيل مجالس الاقاليم سنة ١٢٨٦ تحقيقا للسير بالشعب نحو اشتراكه معه في الحكم وتوطئة لايجاد الحياة النيابية التي أوجدها بعد سرت بذلك عيون وانشرحت له صدور ووقع هذا من شاعرنا الموقع السار للنفس المثلج للفؤاد لانه كان كما قال عنه خيري باشا فيما سبق « يحب أن يرى الوطن قبل موته مكرما مسموع الصوت ذا حرية معتدلة وقوانين عادلة ورعاية حقوق لجميع أهله شامله » فحين توجه الخديوي الى الوجه القبلي في ٢٧ من رمضان السنة المذكورة ليقلد رؤساء تلك المجالس من أعيان البلاد المستنيرين وظائفهم هذه وبعضا من وظائف المديرين ونظار الاقسام قال أبو النصر يشيد بذلك ويؤرخه

عنايات العزيز بملك مصر لأهل القطر جاءت بالمفيد
أفادتهم فخارا لايضاهى فصار الملك في خلق جديد
دعاهم للتمدن فاستجابوا ومن اسعاده اقتبس الصعيد
فشرفهم وقدم ساكنيهم وقلد بالمكارم كل جيد

وحيا فى ليال اقدر حيا فكان قدومه بيت القصيد
وحكم من يليق من الاهالى وأرشدهم فيانعم الرشيد
وأقصى مايود رضا الرعايا وأحسن مايحب ومايريد
وللاوطان أسعف بالامانى فصار القطر كالعقد الفريد
وحاز من المحاسن كل معنى فأبدى البشر والفرح المزيد
وأصبح كل يوم فيه عيداً فارخ ، فى نظام الملك عيد

وحينما طاف الخديوى أقاليم الوجه البحرى لهذا التقليد عينه بعد رحلة الصعيد قال قصيدة محبوكة الطرفين مطلعها

ألملك مصر معادل ونظير ولمن يقاومه يد ونصير

ومنهـا

قام العزيز به على قدم الوفا بحقوقه ، وشئونه التدبير
وتوجهت أفكاره لذوى النهى من أهل هذا القطر حيث يسير
فأعد للأحكام من أعيانهم واختير منهم ناظر ومدير
شكرت رعاياه جميل صنيعه إذ صار منهم حاكم وأمير
والقطر فاضل ماسواه مباهيا بمليكه اسماعيل وهو جدير
ملك رعاياه تطير لأمره طوعا وليس لعزمهم تقصير
ملك جزاه الله عن أوطانه خير الجزاء وإنه لقدير
وأتت له الآمال وهو مظفر فعسيرها حقا عليه يسير
وسعت له العلياء تهتف باسمه وتكاد من فرح اليه تطير
والسعد للاقبال أنشد قائلا الملك مصر معادل ونظير

ولاسماعيل فى هذه السنة أثر خالد على الدهر هو تجديده مقياس النيل بأسوان على يد محمود بك الفلكى بعد اندثاره نحو ألف سنة ولم يفت أبا النصر أن يشيد بهذا العمل الجليل وبالفلكى ويؤرخه بهذه الابيات .

حق على أسوان تبدى شكرها لمليك مصر الداورى اسماعيل
أحيا بها المقياس بعد ذهابه بتجدد التقسيم والتعديل

من بعد ألف وهو فى حجب الثرى أبدى معالمه بخير دليل
الماهر الفلكى محمود الذى جلت معارفه عن التمثيل
أبقى التقاسيم التى وجدت به وبغيرها حلاه للتعديل
قالت له أسوان فى تاريخها أرقيت بالمقياس بحر النيل

وفى سنة ١٢٨٨ تمت إقامة القناطر على الترعة الابراهيمية بديروط فكان لها فى التحكم فى المياه والتمكين من الزراعة فى عدة مديريات الشأن الخطير وهنا قال أبو النصر ينوه بهذا العمل الجليل الخطير موريا بأسماء مهندسيها اسماعيل بك وسلامه بك وبهجت باشا ومؤرخا .

أحيت عنايات الخديوى ملكه فسما بطالع سعده التنظيم
وأفاد بحر النيل حسن تصرف حتى ارتوى بالراحة الاقليم
وأراد ثروته فأحكم ترعة أبدى حلى عنوانها ابراهيم
وبنى بديروط القناطر موردا تقسيمها قد زانه التعميم
فكأنها جبل بذروته بدت آثار مصر حادث وقديم
وبرسم اسماعيل بعد سلامة وافى ببهجة شكلها التتميم
لمليكنا اسماعيل فى إنشائها فضل يدوم به له التعظيم
عمت منافعها فقلت مؤرخا ان القناطر نفعها التقسيم

ولما جدد الخديوى باب المقام الزينبى سنة ١٢٩٤ قال أبو النصر هذه الابيات مؤرخا بها تلك القربى له إلى الله وهى منقوشة على الباب المذكور .

من آل طه التمس ماتبتغى فبهم ينال أقصى الامانى كل ذى أمل
ولذ بباب تسامى فى العلا شرفا فكان كعبة إمداد لكل ولى
حيث الخديوى اسماعيل جدده نور القبول به كالشمس فى الحمل
حب النبى وآل البيت أرخه باب شريف حوى بنت الامام على

ومما ينتظم فى هذا السلك سلك منشآت اسماعيل عنايته الفائقة بترقية مصانع النسيج وتخريج الصناع المهرة فى نقشها وزخرفتها ، حتى إذا ماأقيم لها معرض النمسا سنة ١٢٨٩ أمر رحمه الله مصطفى بك العنانى القائم على مصنع الخيام وسائر

المنسوجات السميكة بصنع خيمة ترسل إلى هناك لتكون أعجوبة المعروضات فصدع بالأمر وصنع خيمة ذات جوانب أربعة غير جانب الباب فكان من حلاها خمس مقطعات وثمانية أبيات من شعر أبي النصر رسمت عليها بالخط الجميل ، فأما المقطعات فقد كتبت أولاها على الصدر الذى فيه الباب وفيها التاريخ واسم المشرف على صناعتها المذكور وهى :ـ

عادات مصر صنائع وبدائع تحلو برسم زانه الاتقان
زادت بأيام الخديوى بهجة فى معرض سارت به الركبان
فلمصطفى بك العنانى أرخوا فى المحفل الاسمى ارتقى صيوان

وكتبت ثانيتها على الجانب المقابل وفيها تاريخ أيضا وهى :

ياذوى الأبصار كم يبدو لكم من أيادى مصر صنع يستجاد
هـذه آثاره تروى الثنا عن خديوى مصر من أحيا البلاد
خيمة باهرة قولوا لمن أرخوها بجـلوا ذات العماد

وكتبت الثلاث الباقيات على الجوانب الثلاثة الأخرى وكلها محبوكة الطرفين

فأولاها

بأفق المعالى وروض السرور تبدت شموس ولاحت زهور
ونادى بشير الصـفا قائلا صدور الأعالى أعالى الصدور
ومن صنع «مصر» بدت خيمة تحلت حلاها بعقـد البدور
فصفها سميرى فقد أشرقت بأفق المعالى وروض السرور

وثانيتها

طالع الاسعاد أبدى الابتسام يانديمى قم بنا نحو الخيام
واسقنى راح المنى فى معرض بالبها يختال فى أحلى انتظام
محفل كم تزدهى أقماره بشموس المجد فى أعلى مقام
حاز بالابداع ما يسبى النهى من صناعات بها ذو اللب هام
طالما أهدى له أتحـافه كل قطر وحباه ما يرام
وبه من مصر لاحت خيمة أحكمت أشكالها حسب المرام

خيمة تزهو على أمثالها ذات حسن فادخلوها بسلام
واشكروا صنع الخديوى كلما طالع الاسعاد أبدى الابتسام

وثالثتها

أعد نظرا تجد صنعا جميلا وهأنا قد أقمت لك الدليلا
لمصر محاسن فى كل فن أرى لبيانها شرحا طويلا
وفى التاريخ لو حدثت عنها لما ألفيت ثم لها مثيلا
هى البلد التى حسنت حلاها وأهدت غيرها خيرا جزيلا
صنائعها تدل على علاها ولا زال العزيز لها كفيلا
خديوى مصر من حاز المعالى فأضحى ملكه ظلا ظليلا
أدام الله نعمته عليها مخلدة به جيلا فجيلا
وإن أنكرت ما يعزى اليها أعد نظرا تجد صنعا جميلا

وأما الأبيات الثمانية فقد نقش كل منها على علم من أعلامها الثمانية التى كانت ترفرف فوقها، ولم يخل بيت من اسم يرادف اسم العلم مع التنويه بالخديوى أيضا

فقد نقش على الأول منها

خديوى مصر أولى بالمعالى وأشرف من تقام له البنود

وعلى الثانى

إذا الأعلام بالبشرى تبدت أجبناها بشكر للعزيز

وعلى الثالث

برايات التشكر قد أشرنا إلى فضل العزيز أبى الفداء

وعلى الرابع

لما علا عدل الخديوى وارتقى فى ملكه رفعت لها الأعلام

وعلى الخامس

رايات اسعاد العزيز ومجده بفخاره بين الأماجد شاهده

وعلى السادس

بيارق إشراق العزيز أبى الفدا لمظهره الأسمى يشير بنانها

وعلى السابع

لاحت بدور العلا فى معرض بهج فكان بدر الخديوى مفردا علما

وعلى الثامن

إذا ما راية الاسعاد لاحت رفعنا للخديوى ألف رايه

ولقد كانت عناية اسماعيل بمكانة مصر وتقوية جيشها مما يطرب له أبو النصر كل الطرب وتأبى عليه شاعريته الا تخليده فى شعره ، فكم شاد بالجيش المصرى وفتوحاته فى عجب وخيلاء ، وليس المقام بالمتسع لايراد طواله فى هذا المقام ، إنما الذى يحلو لنا أن نجلوه هنا مقطعة يسيرة تحدث فيها عن جند اسماعيل فى فتح دارفور سنة ١٢٩١ ه لأن تلك الحملة كانت لتحقيق عمل إنسانى نبيل هو القضاء على الرق والاستعباد الذى كان يناصره ويعمل له سلطان دارفور ، قال مفاخرا بجند مصر ومباهيا بعمل اسماعيل ومؤرخا ذلك فى آخر مايقول .

سمر الرماح إذا لاحت كديجور جلت حلاها علينا البيض بالنور
والشهب تسبق دهما فى تراسلها كأنها آنست من جانب الطور
وللسهام إصابات لمتشد وقوس من لايبالى غير موتور
وكل من يدعى ما ليس يحسنه ضاعت مساعيه فى غى وفى زور
فانظر هديت طريق النصح مافعلت رجال مصر بحزب غير منصور
غصت بهم فاشر من بعد ماشربت سكانها كأس حتف خارج الدور
وأصبح الطير يشدو فوق مصرعهم بالنعى ما بين ممدود ومقصور
كانت بها حمر فرت لما نظرت والخيل غارت بمجزوم ومكسور
وكان فيها أمير يدعى رشدا لكن أفعاله أفعال مغرور
يستعبد الناس رقا كى يفوز بما يسره من سرار عدة الحور
لم يقبل النهى عن بيع الرقيق له عسفا فباء بذنب غير مغفور
وصار فى زمرة الموتى ولاعجب فبغيه واضح للعمى والعور
وقد تواردت الأخبار فابتهجت رجال مصر بنصر غير منكور
وأشرقت أنجم الاسعاد تالية هلال عيد بعود اليمن مشهور

والنصر أعلامه قالت مؤرخة سيف العزيز اه فتح بدارفور

هذا وإنا لنختتم الكلام على موقف أبى النصر من منشآت إسماعيل بموقفه ازاء أجلها خطرا وأعظمها شأنا نعنى بذلك مجلس نوابه الذى أنشأه سنة ١٢٩٦ هـ ١١ يونية سنة ١٨٧٩ فتوج بذلك ما بدأه فى السير بالأمة نحو حكم نفسها بنفسها حين أنشأ مجالس الاقاليم سنة ١٢٨٦ على ما تقدم ، فقد أخذت هذه المنشأة بلب أبى النصر وأبى فى تأريخها أن يقف عند الشطرة فى آخر القصيد بل سجل هذا العمل الجليل بمقطعة من ثمانية أبيات جاءت صدورها الثمانية للتاريخ الميلادى وأعجازها الثمانية للتاريخ الهجرى فظفر التسجيل بستة عشر تاريخا ومع هذا احتفظ فى مقطعته بما أراد تأديته من تمجيد لاسماعيل ومدح لنواب الأمة ورجال شوراه وهذه هى : —

أعد لى ذكر من وعت الأمارة لأجمعهم وما احتاجت أماره

منار الفضل إن دعت الدواعى سراة الملك أركان الأداره

لهم فى كل ناشئة ثبات وتدبير به ازدهت الوزاره

خديوى مصر أخبرهم بعهد به زعماء قد عرفت وقاره

وأومأ وده شرقا وغربا الى التحكيم فافهم بالاشاره

هم البصراء حيث تكون شورى لانواع لهم فيها استشاره

وان تك فاهما ولك اختبار لاسرار الهداية والعماره

فصدقنى وخذ قولى بأمن فان القوم بيعوا بالخساره

وهو يعنى بما قاله آخرا ما عصف بهذا المجلس الناشىء من عواصف الحل والتقويض بفعل الحوادث الطارئة القاسية وحظوظ مصر السوداء العاتية

* * *

٢ - أبو النصر وأفراح اسماعيل

لقد شغلت أفراح اسماعيل حيزا ليس بالقليل من ديوان ابى النصر ولاسيما أفراح أنجاله توفيق وحسين وحسن سنة ١٢٨٩ ثم أفراحه حين عاد من الاستانة سنة ١٢٩٠ بفرمان ثبت ما كان أخذه من حقوق بفرمان سنة ١٢٨٣ وزاد عليه، فانه حدثت فترة بعد الفرمان الاول اشتغلت فيها الدسائس عليه لدى الباب العالى، وكان أن حارب هذه الدسائس وطلب المزيد فنجح فى حربه ونال الزياده، ومن ثم أقام للامة هذه الافراح، فكان أبو النصر يتغنى فى الاولى بعظمة اسماعيل وأبهته ويتغنى فى الثانية بعظمة مصر لما يكسب لها من حقوق ، وهأنذا عارض لبعض ما قال فى كلا هذين اللونين من الافراح مكتفيا فى الاولى بما اختص به توفيق لانه كان دون أخويه ولى العهد والخديوى المأمول : —

قال فى عقد قرانه سنة ١٢٨٩ مؤرخا ذلك الحادث السعيد من قصيده

تلك المسرات كم أبدت لنا تحفا ... تبلغ النفس مما تشتهى أملا
وطالما انتظمت فى جيد زينتها ... قلائد تضرب الدنيا بها مثلا
فاستوف حظك فالاوقات قد سعدت ... وكوكب الانس فى ثوب الصفا رفلا
وبالتأهل توفيق سما شرفا ... وطالع السعد وافاه فزاد علا
نجل الخديوى أدام الله دولته ... مستبشرا بسرور دام واتصلا
لا زال يرقى سما العلياء مبتهجا ... فى ملكه بارتقا أنجاله النبلا
ولا عدمنا له طول المدى مننا ... تعم أوطاننا أمنا وحسن ولا
لنستفيد التهانى بالمنى أبدا ... كما فرحنا بنادى العقد إذ حفلا
ناد به من رياض المجد منتزه ... على قصور المعالى دوحه اشتملا
تبدو كواكبه فى أفق رونقه ... يزينها بدر ملك بالبها كملا
فى يوم أنس بشير السن أرخه ... بدا الكتاب وتوفيق العزيز علا

وقال ليلة زفافه فى تلك السنة مؤرخا أيضا من قصيدة بعد مطلع غزلى طويل

أيخذلنى قول الوشاة وعذلهم ... وجاه الخديوى ناصرى ومساعدى

فان الامانى للأنام وجوده ومدحى له لازال سعدى وساعدى
مليك علت أنجاله ذروة العلا فدان لعالى مجدهم كل ماجد
وكم حازت العليا فخارا بمجدهم فهم خير أنجال لأكرم والد
وأصبحت الدنيا بهم فى مسرة بشائرها تحلو لدى كل وافد
وأفراح توفيق تبدى نظامها بسلك تعالى عن توهم ناقد
فللأنس أوقات وللعز مظهر وللحظ اسعاف بدرك الفوائد
وهذى أويقات الصفا بابتهاجها تلوح كحسنا زينت بالقلائد
تباهى بها بدر البهـا فكأنه بأفق المعـالى لاح بين فرائد
جليل المزايا سالمته يد العلا وقام له بالعهد أعدل شاهد
تسامى به نظم القريض براعة وجيد حلاه زان عقد الفرائد
على أن مثلى قاصر عن مديحه ولو جاء فى البشرى بأعلى القصائد
ولكن بشير اليمن قال مؤرخا تزوج توفيق أحب المقاصد

ولما أهدى السلطان لولى العهد توفيق النشان المجيدى سنة ١٢٨٩ ﻫ فرح بذلك الخديوى إذ جاء هذا الاهداء دليلا على صفاء الجو بين الخديوى والسلطان بما مهد له من بذول وما وثقه به من صلات كان منها زواج توفيق من البيت السلطانى العثمانى المالك فان زوجه كانت بنت الهامى باشا وبنت أخت ولى العهد إذ ذاك والسلطان عبد الحميد بعد . وقال أبو النصر مهنئا بذلك ومؤرخا له .

حلا مورد الاسعاد والفخر والعلا ودامت مزاياه وقد عم فضله
وفاقت معاليه على كل مورد ورقت معانيه وكم راق نهله
بعز مليك عند سلطان ملكه وناهيك فرع طاب فى المجد أصله
مليك له جاه رفيع مؤيد أظل الورى بالأمن لا زال ظله
به دولة الاسلام زاد افتخارها خليفة خير الخلق والعدل عدله
تحلى خديوى مصر من در كنزه بعقد سما قدرا به خص نجله
نشان مجيدى جليل مجوهر من الرتبة الأولى وهذا محله
فقل ما تشأ فى نظم تاريخه وصف نشانا مجيديا وتوفيق أهله

أما أفراح سنة ١٢٩٠ فان الخديوى بعد أن وثق صلاته بالباب العالى على ما تقدم سافر فى أواخر سنة ١٢٨٩ الى الآستانه فى تلك الرحلة التى صحب فيها شاعره أبا النصر والتى تقدمت فيها لصاحبنا تلك القصيدة التى وصف فيها الآستانة وأرخ فيها عيد جلوس السلطان عبد العزيز وتفاوض فيما كان مهد له من طلبات وأجيب اليها وعاد بهذا النصر الى مصر سنة ١٢٩٠ وأقيمت الأفراح كأحسن مما أقيمت لأفراح الأنجال، وكان لشاعرنا فى ذلك جولات شعرية متعددات النواحى : —

فبينا تراه يذكر هذا النصر ذاته فينوه به ويؤرخه فى مطولات يقول فى إحداها بعد مقدمة غزلية طويلة :

دعونى أداوى النفس من لوعة الهوى ... برشف لماه أو بتقبيل خده
ولا تعذلونى حيث عذرى واضح ... وسائل دمعى لا يقال برده
على أننى أدركت حسن تخلصى ... بيمن خديوى مصر صادق وعده
مليك عزيز أكسب الملك عزة ... وألبسه تاج الفخار بمجده
وقد مدن الأوطان حتى تقدمت ... وعم رعاياه بوابل رفده
وأحيا لأحياء العلوم مدارسا ... تبدل غى المستفيد برشده
وفى كل عام قد تعود رحلة ... إلى خطة تزهو بطالع سعده
يؤم بها دار الخلافة مخلصا ... إلى ملك وفى له حفظ عهده
وقابله بالبشر محتفلا به ... وحياه إذ وافى باخلاص وده
حباه امتيازات بفرمان حظوة ... تقاصر عنها من مضى قبل عهده
فيامصر عن تلك المكارم حدثى ... لحظك قد وافى بغاية جهده
وجاء بشير الأنس يروى حديثه ... ونادى ببشرى قربه بعد بعده
يقول أرى الأرجاء نورا تلألأت ... وفى الثغر قد لاحت طلائع جنده
كواكب إقبال بموكب ماجد ... بشير بأعلام البها تحت بنده
ووافق عيد النيل عيد قدومه ... فيانيل نلت اليمن من فيض مده
فلا زال بالاسعاد فى كل رحلة ... يروح ويغدو حائزاً فوق قصده
ولا زال بالانجال فى عز ملكه ... يفوز بما يقضى باذلال ضده

ولا زالت الأشعار تهدى لبابه وتحفظ من نقض الحسود ونقده
فما الفكر إلا قاصر عن مديحه وما الشعر إلا واقف عند حده
وأقصى التهانى أن أقول مؤرخا أدام الخديوى صفو مصر بعوده

إذا هو يعد عدة مقطوعات مؤرخة تكتب على الزينات بعابدين والجزيرة كان المكتوب منها على باب عابدين الأول

مصابيح البشائر والتهانى لها فى الملك آيات مبينه
بتشريف المليك تقول أرخ لعودته مسرات بزينه

وكان المكتوب على بابها الثانى :

بدا طالع البشرى وعم سروره وعيد الصفا وافى عن البشر معربا
وداعى التهانى قال يامصر أرخى بعود الخديوى أصبح القطر معجبا

وكان المكتوب على بابها الثالث

كواكب اسعاد تلوح بزينة بعود الخديوى فى مطالع سعده
فيا أنس أقبل يامسرات أرخى أدام الخديوى صفو مصر بعوده

ثم كان المكتوب على باب جسر قصر النيل الموصل الى الجزيرة وكان القدوم موافقا وفاء النيل كما تقدم .

بشير الهنا حيا فأحيا نفوسنا وبلغنا مما نود الأمانيا
وطاف برايات التهانى مؤرخا قدوم الخديوى سير النيل وافيا

وكان المكتوب على باب الجزيرة الأول .

أشرق الملك بازدهاء التهانى حيث وافى أبو الفدا بالسلامه
وابتهاج القدوم قد أرخوه عودت مصر بالقدوم الكرامه

وكان المكتوب على بابها الثانى

يا أهل مصر تسابقوا لحظوظكم واستبشروا
فالسعد قال مؤرخا آل الخديو فاشكروا

٣ – ابو النصر ومواسم اسماعيل

لقد كان مرور المواسم على اسماعيل يهز من شاعره أبى النصر المشاعر ويجعله يصوغ شعوره نحوها فى كثير من القصيد الفاخر الصادر عن إخلاص حق وولاء صميم، ولعل أكثر هذه المواسم تأثيراً فى نفسه واستيحاء لشعره كان عيد ميلاد إسماعيل ولعله لهذه المكانة له عنى بتاريخه أوفى عناية وحفل به أوفى حفل، هاهوذا يؤرخه عشرين تاريخا هجريا لسنة ١٢٩٤ فى مقطعة تبلغ عشرة الأبيات فى كل شطر من أشطارها تاريخ ومع هذا احتفظ للمعنى الصادر عن نفس مخلصة لما تقول بشىء من السمو قال :

خليلى إن الكون لاح ابتهاجه ... ودوح تهانى الأنس تجلى أزاهره
وبشرى سرور داوم الأمن والمنى ... أعادت لنا يوما حوى اليمن شاكره
به مولد دامت عنايات من سعى ... ليبدى تشريفا به وهو زائره
لقد سرنا أنس الخديوى بعوده ... بأرفع مجد والمعالى تسامره
دعانا بتشريف نهنيه دائما ... ونبدى ثناء عطر الكون عاطره
لديه وردنا منهلا، عذب طبعه ... يروح فى وقت اللقا من يبادره
فما ألطف النادى وما أوضح الندى ... يروق موافيه من البشر باهره
وإنى ولو أنفقت كنزا ملاءته ... بيانا فكم فى المدح أسرف شاعره
فيانبلا الاخلاص للفوز بادروا ... فمولد إسماعيل جاءت بشائره
عوائده تروى أحاديث مدحه ... صحاحا وأشهاد الأمان مآثره

وإنما قلت بشىء من السمو لأن التعمل لتأريخ التاريخ كان يقتضى من الشاعر كلفة فى اللفظ والمعنى على السواء ولكن إذا أردت أن تستمع فيه الى شرف المعنى وسجاحة اللفظ فأصغ إليه حيث يقول فى التهنئة بهذا الميلاد فى غير تاريخ من قصيدة طويلة .

إذا أطنب المداح فيك وأكثروا ... فأنت خديوى مصر والفضل أشهر
وآمالنا لا منتهى لورودها ... على بحرك الطامى وبرك أكبر

وأنت المليك العدل - والعدل شاهد رعاياك كم تثنى عليك وتشكر
لك الله إذ أوليتنا كل نعمة بها نتباهى بيننا حين تذكر
بمولدك الأسمى زها الملك وازدهى وسرت به الأوقات والحظ أوفر
وأضحت الى مرءاك تصبو نفوسنا وحبك مابين الورى ليس ينكر
وأبدت ليالينا كواكب أنسنا كأن عقود الدر فى الجو تنثر

وفى كل موسم إسلامى من كل سنة هجرية كان أبو النصر يرفع الى مقام اسماعيل تهنئته بالموسم منوها بفضله على النهوض بمصر وتمدينها، كمستهل السنة ونصف شعبان وحلول رمضان وليلة القدر وعيد الفطر وعيد الأضحى. على هذا كانت سنته طوال عهد اسماعيل وهذه مقتطفات يسيرة شواهد على تلك المناسبات من مطولاته الكثيرة

قال فى مستهل سنة ١٢٩٠ بعد مقدمة غزلية طويلة مع التاريخ فى آخر شطر منها.

فمن منصفى والناس فى الحب لم تزل لمن حب عذالا وشاة وحسدا
ولكن لى صبرا جميلا على الهوى أكابد أشجانى وأبدى تجلدا
على أننى لا زلت عنهم بمعزل فانى غنى بامتداح أبي الفدا
مليك سما أوج المعالى بمجده عزيز بأنواع المزايا تفردا
جواد حبا الأوطان أحسن حلة وأخصبها أرضا وأكسبها ندى
له منن تحيي الوجود، وجوده يفيد من استسقى غواديه سؤددا
فمن كفه والمستمدين جوده ترى مصدرا للمكرمات وموردا
أفاض على الدنيا عوائد بره وشتت شمل المبغضين وبددا
وقد أقبل العام الجديد بسعده يقول له أبشر فلا كانت العدا
فحق على مثلى يبشره به وينظم فى بشراه درا منضدا
ويدخل من باب التوسل شاكرا صنيع مليك بالقبول تعودا
وما دمت حيا لا أزال مؤرخا أهنى الخديوى كل عام تجددا

وقال فى ليلة النصف من شعبان سنة ١٢٩١ بعد مقدمة غزلية خمرية طويلة مؤرخا فى آخرها أيضا.

تقيمنى لوعة الشاكى وتقعدنى كأنها ألزمت أجفانى الأرقا
لكننى لم أزل فى أمة أمنت حيث الخديوى حمى أوطانها ووفى
ليث المهابة جار المستجير به فى سخطه ورضاه نعمة وشقا
من غيث جدواه أغنى كل ملتمس وبأسه زاد من لايرعوى قلقا
فى كفه لو ترى سيفا يجرده أبصرت برق سحاب ممطر برقا
ولو تخيله ليث العرين إذا ماصال لارفض مما راعه عرقا
برب الندى بر طالما ملئت خزائن لامرىء من بحره ارتزقا
أحيا المآثر حتى قال مادحه هذا الذى ألف الخيرات واستبقا
ساد الألى أثبت التاريخ مالهم من الفخار وأنسى ذكر من سبقا
سارت بسيرته الركبان فامتلأت قلوب حساده من حسنها حنقا
لكنه لم يزل بالحق معتصما والله يحفظه من شر ماخلقا
ولاتزال به الأنجال فى شرف يسمو بتوفيق عز كامل وبقا
فانه اعتاد إحياء المواسم فى أيامه فأرانا عطفه نسقا
فى كل شهر إذا مالاح طالعه سمعت كل لسان بالثنا انطلقا
وراية النصر لازالت مورخة بنصف شعبان صفو للمليك رقى

وقال يهنىء بالصوم وليلة القدر سنة ١٢٩٠ معددا أفضال الخديوى على مصر ومؤرخا أيضا

إذا الصوم وافت بالسرور طلائعه وبدر التجلى فيه لاحت مطالعه
بسطنا أكف الأبتهال تضرعا الى منعم تهدى الأنام شرائعه
وفى رونق الشهر الشريف بدا لنا قبول بفضل الله فاضت هوامعه
فصمنا وقمنا واجتلينا بأنسه عرائس روض أطربتنا سواجعه
وفزنا بأوقات الصفا كل ليلة إذا بارق الأنوار ضاءت لوامعه
وصبح الأمانى لاح إشراق نوره بيمن الخديوى حيث عمت سواطعه
جليل المزايا كم له من مآثر جميل السجايا كالنسيم طبائعه
له الله كم أسدى وأبدى فوائدا تساوى بها دانى المكان وشاسعه

وما مصر الا الكنز كان مخبأ فأضحت به منها تلوح ودائعه
حباها من الأنهار ماعم نفعه بآرائه والحزم ترجى منافعه
وشاد مبانيها ومدن أهلها بأقرب عهد والزمان مطاوعه
عهدناه برا بالرعايا فبره هو البحر يجرى والأمانى تتابعه
وما رد راج أم كعبة جوده بل البشر يلقاه وتقضى مطامعه
وكم صادفت أدنى الورى منه لحظة فدانت له العليا وسادت توابعه
له فى نظام الملك جند مظفر سما بعده بالنصر والسعد رافعه
تسامت به الأنجال مجدا وسؤددا فاسعادهم فى الكون عز مضارعه
بمدحى له أصبحت أشرف ناظم تروق معانيه وترقى بدائعه
وانى لمهديه لدى كل موسم من النظم مايحلو ويمتاز بارعه
وإن كنت فى أهل البراعة قاصراً مقلا فقد يمشى مع الركب ظالعه
على أن مايروى من الشعر دون ما روته معالى مجده وطوالعه
فأرجو الذى أولاه ملكا مؤبدأ يؤيده دوما على من يخادعه
ويبقيه بالنصر العزيز مبشراً ولازال بالبشرى تسر مسامعه
ولا غرو ان قال "بشير مؤرخا مليك كريم ليلة القدر طالعه

ومع تعرضه لليلة القدر كلما هنأ بشهر الصوم كان يختصها أحيانا بالشعر كأن يقول فيها من قصيدة مؤرخا سنة ١٢٩١

هل يجعل الصبر قوتا فى الغرام سوى صب لديه التدانى والبعاد سوا
إن زاره الطيف لايلفى به رمقا كأنه فى زوايا الاستتار ثوى
أليف سهد له الأفلاك شاهدة بأنه والد صب حليف جوى
خاف الملام فأخفى مايكابده صبرا ومانشرت أيدى الشجون طوى
وهام فى ملك بر يورخه فى ليلة القدر يرقى للعزيز لوا

وقال مهنئا بعيد الفطر لسنة ١٢٩٤ من قصيدة بعد مقدمة غزليه طويلة مؤرخا فى آخرها .

أما كفى لائمى مابى فيعذرنى | وما أراد بتعنيفى وماقصدا
أراه فى الحب لايدرى مكابدتى | ولو درى لوعة الشاكى لماجحدا
لكننى لست ممن يتقيه ولو | أعد لى من تباريح الأسى عددا
وكيف أخشى وجاهى فى التخلص لى | مدح الخديوى وحاشى أن اضيع سدى
فهو النصير لشاك عز ناصره | وبحر جدواه يروى كل من وردا
وكم له من سجايا كلها همم | ومن مزاياه من نال المنى سعدا
مامد كف سؤال للعلا أبدا | وطالما مدت العليا اليه يدا
والمجد أشرف مايعزى لمنتهج | سبيل من جد فى جد الهوى وهدى
بالحزم أفكاره جاءت بما عجزت | عنه الأوائل حتى قوم الأودا
ومدن القطر إذ عمت مآثره | برآ وبحرا وفى الأقطار كم حمدا
وهذه نعمة من الاله بها | ونعمة الله لانحصى لها عدداً
شهر الصيام توالى أنس بهجته | والعيد أقبل يهدى بهجة وندى
وقد سما فى سماء اليمن طالعه | وكوكب العز أبدى للأنام هدى
وجمل اليوم بالتشريف مبتهجا | وبالوقار له عدل البها شهدا
فكان حقا علينا أن نديم له | حسن الدعاء ليبقى دائما أبدا
لازال مسترشداً أنجاله ليرى | توفيقهم كاملا حسنا ومتحدا
ودام فى حظوة تسمو بهم فرحا | والله حافظه ممن له حسدا
وانني كلما كررت مدحته | أرى بحار المعانى لاتبل صدى
حيث المدائح لاتوفى بلاغتها | بواجب الشكر لو رام البليغ أدا
وتلك تهنئة قالت مؤرخة | عيد جميل بتشريف العزيز بدا

وقال فى عيد الأضحى لسنة ١٢٨٩ بعد غزل انتهى بذكر الراح متخلصا منها إلى مايريد ومؤرخا فى النهاية أيضا

لولا اعتصامى بالعزيز جعلتها | وردى وهل أخشى ملامة لاحى
وصرفت أوقات الخلاعة كلها | مابين راح تشتهى وملاح
أيليق ممن ينتمى لأبى الفدا | إلا انتهاج سبيل كل صلاح

ملك مآثره مواسم ملكه ... فالناس فى فرح به وفلاح
يمحو بوجه العدل كل ظلامة ... وكذا الدجى تمحى بنور صباح
كم أعربت أيامه عن عدله ... حتى غدا فى غاية الايضاح
إذ مدن الاوطان باستحسانه ... وأنار مصر بدافع الاصلاح
أهديته نظم القريض واننى ... أرجو القبول فان فيه نجاحى
ولزمت فى الاعياد واجب مدحه ... لأكون قدوة سائر المداح
لازال فى عيد السرور مقربا ... حساده للنحر وهى أضاحى
ماحجت الآمال كعبة فضله ... والسعد لباه بوجه سماح
فهو الجدير بما يروق من الثنا ... والمجد مستغن عن الافصاح
الله أكبر كم أقول مؤرخا ... عيد الخديوى أكبر الافراح

وأخيرا ثم آخرا كأن شاعرنا أبا النصر لم تكن كل تلك المناسبات لتشفى منه غلة فى مدح الخديوى اسماعيل والتغنى بمآثره ومناقبه فكان فى غير باعث سوى الرغبة فى نقع تلك الغلة يجلو اليه الفريدة تلو الفريدة بين الفينة والفينة ، وهذه إحدى تلك الفرائد كاملة بمطلعها الغزلى على غير ماتعودنا فيما به استشهدنا ، إيفاء لبعض لما لقصائده علينا وعلى الادب من حق ، قال رحمه الله .

أدرلى كئوس الراح رائقة الورد ... على خالك المسكى أوخدك الوردى
بروض انتزاه غصنه مال صبوة ... الى قدك المياس أو عرفك الندى
ولا تخش عذالى وزمزم وعاطنى ... فان ملامى فى غرامك لايجدى
واياك أن تسعى بها بعد مزجها ... الى غير من يهواك ياغاية القصد
ودعنى ومن يهوى الملام جهالة ... فانى كفيل للمفند بالرد
وعدنى إذا دار الحديث بزروة ... وعدنى فانى قد تمسكت بالوعد
وان تر ذنبا فى هواك اقترفته ... فرفقا فشأن السيد الرفق بالعبد
تعطف ولا تجعل جوابى «لن ترى» ... أقلبى من ماء وقلبك من صلد
وجرد سيوف اللحظ ان رمت قتلتى ... ولا تنس قول الله فى قاتل العمد
ومن لى إذا ماكنت خصمى وحاكمى ... أيحسن أن أشكو وأنت أخو ودى

على أننى صاد و ثغرك قد حلا فياظمئ هل يدرك الرى بالشهد
وماء حياتى فى لماك علته ولكن علبى لايفيد ولا يجدى
فلا تتبع قول الوشاة فانهم يريدون قتل الصب بالهجر والصد
وانى ولو ألقوا اليك زخارفا لباق على ودى مقيم على العهد
فلا تبتئس مما يقولون واتئد فانى عن السلوان فى غاية الزهد
أعد الليالى فى انتظارك ساهرا وما كنت معتدا وحقك بالعد
وما اكتفت الايام منى بما جرى من الدمع بل رامت مجاوزة الحد
وما هى إلا طوع من أنا عبده يقلبها ان شاء حرا ال برد
فان هى وافت كان فضلا ومنة وان أعرضت مالى عن الصبر من بد
ومالى وللشكوى ولى خير ملجأ أعوذ به من كل نائبة تردى
مليك ترى العلياء تحت ركابه تود التماس المجد من صاحب المجد
فان خدمت مدت لخادمه يدا ومدت لجدواه إذا التمست أيدى
عزيز هو الحرز المنيع حماية لسيرته ذكر يخلد من بعد
عساكره تدعو البغاة الى الردى وحدتهم تغنى السيوف عن الحد
بنادقهم كالسحب لكن قطرها رصاص وصوت الرعد فى أثر الزند
ومن جور هاتيك المدافع إذ غدت مسلطة باتت عداه على وجد
هو الداورى اسماعيل من فاق أصله بتحقيق تثبيت الوراثة فى العهد
وقد مدن الاوطان شرقا ومغربا وبالعدل فيها كم يعيد وكم يبدى
فلا زال بالانجال فى عز ملكه يجدد رغم الحاسدين ذوى الحقد
تمنيت أن أرقى لأوج امتداحه وأدنو لدى مرأى حماه وأستجدى
فكحلت أجفان اليراع لعله يسير إلى بيت القصيد ويستهدى
فقام بخمس راكبا ساجدا كما أشرت اليه ثم أعرب عن قصدى
وخط كما أمليت والله عدتى فجاء بما يهدى إلى خير من يهدى
ونظم عقداً حاز كل فريدة وفاق على الجوزا بواسطة العقد

فرائد مدح فى سلوك تشكر تصان بعون الله عن فرية النقد
فان من فضلا بالقبول فانها تعرف تشكيرى لدى العلم الفرد
وإن كف بالكف الجزيل نواله جنود التماسى بت أهتف بالحمد
وما هو فى الاسعاف إلا كأصله عن الاب كم يروى الندى وعن الجد
ولو أننى أنفقت عمرى مادحا فما أنا إلا من علاه على بعدى
وكم سارت الركبان تشدو بذكره كان لها شوقا الى العلم السعدى

السباعى بيومى

أستاذ بدار العلوم

٢٧ / ٦ / ١٩٤٥

أعلام البيـــــان

فى عصر اسمـــاعيل (١)

للأستاذ عمر الدسوقى

تمهيد :

كانت نهضة محمد على علمية حربية صناعية ، ولم يكن فى حاجة للادب ، ولذلك لم يلتفت إليه أية التفاتة ، وإنما كان فى حاجة لجيش قوى يؤيد عرشه . ويؤسس دولته . وكان كل شىء فى مصر مسخراً لهذا الجيش ، وكل البعثات من طبية وعلمية وصناعية وغيرها إنما قصد بها خدمة الجيش ورجاله .

ومع ذلك فقد كانت هذه النهضة الحربية أساساً للنهضة العلمية الأدبية التى ظهرت فى عهد اسماعيل ، فالمدارس التى فتحها محمد على ، والبعثات التى تزودت من علوم أوربا واطلعت على حضارتها ، والكتب التى ترجمت أسهمت كلها فى النهضة التالية ، وساعدت على نجاحها ، فلم يكن كبار المفكرين وقادة الرأى والاصلاح فى عهد اسماعيل إلا شبانا فى عهد محمد على ، ولقد أفادوا مصر أكبر فائدة فيما بعد ، وفى طليعتهم رفاعة الطهطاوى ومحمد على البقلى ، واسماعيل الفلكى ، وعلى مبارك . إن محمد على وإن لم يهتم بالأدب إلا أنه مهد السبيل لإعلائه بإحيائه الجامعة العربية ، واللغة العربية ، والأزياء العربية إذ كان يُكره من يدخل فى خدمته من الأجانب أن يتزيوا بالزى العربى ، ويتكلموا اللغة العربية ويؤلفوا فيها أو ينقلوا كتبهم إليها ، ويحتم على رجال البعثات الذين أتموا تعليمهم أن يؤلفوا أو يترجموا فى الفنون والعلوم التى تخصصوا فيها ، ويقدموا

---

(١) محاضرة ألقيت فى نادى دار العلوم يوم الاثنين ٢ من يوليه سنة ١٩٤٥

إليه ثمرة عملهم فكان هذا أول بعث للغة العربية بعد أن كانت مقبورة مطمورة على يد الاتراك .

ثم كانت فترة ركود فى عهد عباس وسعيد كادت تعصف بهذا الغرس الطيب الذى وضع فى أرض خصبة قوية ، إلا أن الحظ واتى الأمة العربية فلم تطل تلك الفترة وشفيت مصر من النكسة ، وجاء اسماعيل العظيم فكان عهده الصبح الذى بزغت فيه شمس الآداب العربية التى تتمتع اليوم بضوئها الساطع ، وحرارتها القوية وأشعتها السابغة ، وما تضفيه على عقولنا من خيرات وبركات أوشكت أن تربى على ماتمتع به أسلافنا فى العصر العباسى .

إن ماقدمه اسماعيل من خدمات جليلة للغة العربية وآدابها غنى عن البيان والتعريف وحسبنا أن نذكر دار الكتب ، ودار العلوم ، ومئات المدارس ، والبعثات المتعددة التى جدد إرسالها ، والمطابع التى أخذت تحى آثار السلف ، وتشجع انتاج الأدباء والمعاصرين ، والصحف العديدة التى عملت على نشر الثقافة وإيقاظ العقول ، ثم تشجيعه رجال الأدب والعلم ، وتقريبهم منه . وكم كنت أود أن يتسع لى الوقت فأخوض فى كل هذا بشىء من التفصيل ، كى ندرك إلى أى مدى نحن مدينون فى نهضتنا العلمية والأدبية الحالية إلى مابذل فى عصر اسماعيل ، ولكن هذا يحتاج إلى أكثر من محاضرة ، وبحثى اليوم حول أعلام البيان فى عصر اسماعيل .

سارت النهضة الأدبية سيراً طبيعيا متدرجة من التقليد إلى شىء كثير من التجديد وبذلك تميز فى عصر اسماعيل مدرستان أدبيتان: الأولى مدرسة المقلدين ، والأخرى مدرسة المجددين .

مدرسة المقلدين :

كان من آثار النهضة التى ابتدأها محمد على وواصلها اسماعيل أن وجدت بمصر دواوين شتى بعضها للحكم والسياسة ، وبعضها للكتابة والتعليم ، وكان من الطبيعى أن يلتفت الادباء الذين أخذوا يلتمسون المناصب ويرتزقون بأقلامهم إلى الوراء لعلهم يجدون من يكون لهم نموذجا يحتذونه ، فرأوا فجوة كبيرة تقطعت فيها أسباب اللغة العربية وضعفت وانحلت ، وحلت محلها اللغة التركية فى الدواوين ، ومن تجرأ على

الكتابة بها لم يسلم من اللحن الفاحش،ولم يعد فى استطاعته أن يأتى بالمفهوم المقبول بل أغرق فى البديع حتى استغلق مايكتب ، وأتى بالغث السمج الذى إن حسن فيه شىء كان سرقة واغتصاباً ممن سبقه ، ثم مدوا طرفهم إلى أبعد من هذا العهد المظلم، إذ لم يجدوا فيه غناء ، فوجدوا طلبتهم فى مأثورات القاهرة إبان عهد صلاح الدين وخلفائه من ملوك الدولة الايوبية ، وأصبح القاضى الفاضل وابن مطروح ، وبهاء الدين زهير،والشاب الظريف قدوة موموقة لكل أديب يتطلع إلى رئاسة الانشاء فى الديوان أو ينشد الحظوة والقربى من أمير البلاد أو كبار الاعيان فيسلك بين الندمان .

عكف هؤلاء الادباء على آثار العهد الايوبى يدرسونه ويقلدونه فطولوا أيام البقاء لهذه المدرسة القديمة التى اختفت فيها شخصية الاديب وتوارت انفعالات نفسه وأحاسيسها تحت ركام كثيف من الصنعة ، والتزلف ، والتقليد .

كان الادب فى هذه المدرسة عبداً للملوك والامراء ، والاعيان والكبراء يشيد بأعمالهم ويخلد مآثرهم ويدخل السرور على نفوسهم ، ويثنى عليهم فى كل مناسبة سواء كانوا عادلين مصلحين أو بطاشين مفسدين ، فكل حاكم سيد الوجود فى زمانه آت بالمعجزات فى أعماله معصوم من الخطأ فيما يأتى به ، يبتز مال الناس غصباً فلا يلام على ماغصب بل يمدح على ماأنفق ؛ والاديب الكبير مداح للامير الكبير ،وهجاء لاعدائه وشانئيه ؛ والاديب الصغير مداح للغنى الصغير يتملقه ويتغنى بفضله وينهش أعداءه .

لم يكن للاديب فى هذه المدرسة هم إلا إرضاء سيده ومن تعلق بسببه ، فيزف إليه المدائح فى كل مناسبة بل وفى غير مناسبة ، فأعياده وأفراحه ، وسفره ، وقدومه ومنشآته كلها فرص للنظم وتقديم المدح والثناء ، ولقد رأيتم نموذجا لهذه المدرسة فى محاضرة الاستاذ الجليل السباعى بيومى عن السيد على أبى النصر .

تتبع أدباء هذه المدرسة ماشاع بين أدباء الدولة الايوبية من أغراض النظم والنثر التى كانت محببة إلى سراة القاهرة،ولا تزال عالقة بالاذهان من ذياك العهد حتى عصر اسماعيل،وأخذوا يقولون فى هذه الاغراض تكلفا وتقليدا ،فالطرائف المنظومة

وحل الالغاز ووصف البساتين والنفائس والرياض ، والغزل المصطنع ، والمرح والاستعطاف والاعتذار ، والشكر صارت كلها عتوانا لظرف الأديب . وسمت الكاتب والناظم وشارة النديم المصاحب للملوك والامراء .

وكما قلدوا أدباء العهد الايوبى فى الدوافع التى من أجلها تنظم القصيدة وتدبج الرسالة ، وفى الأغراض التى ينشىء فيها الكاتب وينشد الشاعر ، قلدوهم كذلك فى القالب الذى يعبرون فيه عن هذه الاغراض فاحتفوا بالجناس والتورية والألغاز ، والتواريخ ، والسجع ، لان هذا النوع من الادب كان الادب المختار عند أمثال القاضى الفاضل وابن مطروح .

ومن ذلك نرى أن أدباء هذه المدرسة لم تكن لهم شخصية ما وأنهم لم يكونوا أحراراً فيما يقولون أو يكتبون أو ينشدون ، ولا فى الصيغ التى بها يفصحون ويعبرون ولم يكن لحبهم وبغضهم ، وشعورهم الشخصى أى قيمة ، لأنهم كانوا مسخرين لغيرهم ولم يكونوا ملكا لانفسهم .

وأدباء هذه المدرسة نوعان :

(ا) أدباء الدواوين

(ب) والندماء

أما أدباء الدواوين فخير نموذج لهم ، وأصحهم لغة رأبرعهم تركيبا وأسلمهم فهما وتفكيرا وأعلاهم صيتا وجهارة شأن فهو عبد الله باشا فكرى . وهو يعطيك صورة واضحة للوزراء الكتاب فى أخريات الدولة العباسية والدولة الايوبية ، وقد اتخذ له خاتما رقم عليه الآية : « إنى عبد الله آتانى الكتاب » لأن جملة حروفها توافق سنة ميلاده بحروف الجمل . وقد كان اتخاذ أمثال هذه الخواتم من شارات الكتاب ، وذوى المناصب الوزارية فى أيام العباسيين ومن حذا حذوهم من القاطميين والايوبيين .

وكان مثلهم ينظم الشعر ويكتب الرسائل ، ويتولى التعليم وإدارة المدارس

ولد بالحجاز (١) من أب مصرى ، وأم من المورة ، ومات أبوه وهو صغير فكفله بعض أعمامه ودخل الازهر وتعلم العلوم العلوم الشائعة فى عهده من لغة وفقه وحديث

---

(١) ولد فى سنة ١٢٥٠ هـ ١٨٣٤ م وكان أبوه محمد مرافقا فى الحجاز للجنود المصرية

وتفسير وعقائد ، واعتنى باللغة التركية حتى اتقنها لأنه كان ينشد وظيفة فى الدولة وقد وظف وهو دون العشرين،وما زال يترقى فى أعمال الترجمة حتى بلغ من شأنه أن يصاحب الخديو اسماعيل عند سفره إلى الاستانة (١) ، لاستكمال الرسوم من تقليد الولاية وأداء الشكر لآل عثمان ، ثم ندبه الخديو لملاحظة الدروس الشرقية التى كان يتعلمها انجاله الامراء توفيق وحسين وحسن ومعهم الامير ابراهيم أحمد والامير طوسون سعيد فهو من الديوانيين بالتربية والنشأة والصناعة .

فكان يضع التواريخ بحروف الجمل فى مطالع القصائد وخواتيمها فقال فى فتح « سباستبول» وكل مصراع من مطلع القصيدة تاريخ للسنة .

لقد جاء نصر الله وانشرح القلب   لأن بفتح القرم هان لنا الصعب

وقال مؤرخا زواج الامير حسين كامل :

أرخ لنحو حسين   تزف عين الحياة

وكان يكثر من الجناس فقال فى مدح « إسكار » ملك السويد حين سافر إليها لحضور مؤتمر المستشرقين سنة ١٨٨٨ .

وتلا به « اسكار » رب سريره   قولا به لذوى النهى إسكار

وقال فى مليح رآه أول الشهر :

وبدر تبدى شاهرا سيف جفنه   فروع أهل الحب من ذلك الشهر
وليـلة أبصرنا هـلال جبينه   علمنـا يقينا أنهـا غرة الشهر

وكان يصف الآنية والازهار ويشبه بالنفائس على طريقة الظرفاء المقتدى بهم فى عصر الايوبيين خلال المنادمات والمطارحات كما قال فى نار موقدة فى فحم حوله رماد .

كأنمـا الفحم مابين الرماد وقد   أذكت به الريح وهنا ساطع اللهب
أرض من المسك كافور جوانبها   يموج من فوقها بحر من الذهب

وقال فى الورد :

كأن وردا لاح فى كمه   يزهو بثوبى خضرة واحمرار

---

(٢) كان ذلك فى سنه ١٨٦١ م

ياقوتة فى سندس أخضر أو وجنة خط عايها العذار

ونجد حكمه لا تشبه تلك التى كانت ترد عفواً أو نتيجة القريحة الصافية، والطبع الفنان فى شعر الجاهليين والمخضرمين ، ولكنها تشبه حكم الاباء المجربين ، والعلماء الواعظين والمعلمين المؤدبين من ذلك قوله :

إذا رمت المروءة والمعالى وأن تلقى إله العرش براً
فلا تقرب لدى الخلوات سرا من الأفعال ما تخشاه جهرا

ومن ذلك قصيدته المشهورة .

إذا نام غر فى دجى الليل فاسهر وقم للمعـالى والعوالى وشمر
وسارع إلى ما رمت مادمت قادرا عليه وإن لم تبصر النجح فاصبر

وهذه لعمرى نصائح معلم لاوحى شاعر

وربما كانت قصيدته الرائية التى أرسلها إلى الخديو توفيق بعد أن اتهمه بالاشتراك فى الثورة العرابية، وحبسة وقطع معاشه من خير ماقال، ولكنها تحتوى على معان تخطر لكل من يعتذر وليس فيها جديد إذ لم يزد عليها من وحى الشاعرية ما يمتاز به طبع الفنان ولهجته فى التعبير ومنها يقول :

مليكى ومولاى العزيز وسيدى ومن أرتجى آلاء معروفه العمرا
لئن كان أقوام على تقـولوا بأمر فقد جاءوا بما زوروا نكرا
فما كان لى فى الشر باع ولا يد ولا كنت من يبغى مدى عمره الشرا
فعفوا أبا العباس لا زلت قادرا على الأمر إن العفو من قادر أحرى
وحسبى ما قد مر من ضنك أشهر تجرعت فيها الصبر أطعمه مرا
يعادل منها الشهر فى الطول حقبة ويعدل منها اليوم فى طوله شهرا
أيجمل فى دين المروءة أننى أكابد فى أيامك البؤس، والضرا

ونلاحظ فى هذه القطعة أن فيها شيئا من الحرارة والعاطفة ، لأنه متألم ، ولذلك جاءت محررة من القيود ، قريبة من أدب الطبع وإن كان طبع الذليل المستعطف .

ولعبد الله فكرى بعض قطع يستروح منها الناقد نفحة الشاعرية ، وذلك حين

يطلق النفس على سجيتها ، ويتحرر من هذه القيود اللفظية والأغراض التقليدية ، ولعل أجملها ما قاله فى المجون :

وهيفاء من آل الفرنج حجابها على طالبى معروفها فى الهوى سهل
تعلقتهـا لا فى هواها مراقب يخاف . ولا فيهـا على عاشق بخل
إذا أبصرت من ضرب باريز قطعة من الأصفر الأبريز زلت بها النعل
فلما تعارضنا الحديث تعرضت لوصل ، ومن أمثالها يطلب الوصل
فرحت بها فى حيث لا عين عائن ترانا ، ولا بعل هناك ، ولا أصل
وبت ولى سكران من خمر لحظها وراح ثناياها ، ومن خدها نقل
وقمت ولم أعلم بما تحت ذيلها وإن كان شيطانى له بيننا دخل

فهذه القطعة تفصح عن احساس الشاعر المسلم ، وما تمليه عاداته عليه ، وما ينم على ضميره فى أمثال هذه المواقف إذا ترك نفسه على سجيتها بلا محاكاة ولا تكلف ولذلك وضحت عليها الملامح النفسية .

أما نثره فكان له فى أسلوبان : أحدهما مرسل يكتب به فى الشؤون العملية والتقريرات العلميه فتغلب فيه ملاحظة المعنى وتقل فيه الأسجاع والفواصل ، ومثاله ما كتبه من جوتمبرج الى الوزير رياض باشا بما شهده فى مؤتمر المستشرقين اذ يقول :

« ثم أشير الى فقمت وأنشدت قصيدة كنت أعددتها لذلك بعد ارتحالنا من باريس ، فأتممتها فى الطريق وبيضتها فى أستكهلم فابتدأت أقول :

اليوم أسفر للعلوم نهار وبدت لشمس نهارها أنوار

ومضيت فيها الى آخرها ، وصفق الناس لكل من خطب وبالجملة لى لما أتممت الانشاد ، وخاطبنى أناس منهم باستحسانها فى اليوم ، وحضر كاتب المؤتمر على أثر الفراغ منها ، وسادنى بطلب نسختها فأخذها فى الحفلة »

والأسلوب الآخر هو الذى يحتفى بتزويقه وتنميقه ويقلد فيه مدرسة القاضى الفاضل فلا تفوته سجعة واحده ، ويكثر من الألغاز على طريقة المقامات ومثال ذلك ما كتبه الى أحد أصحابه :

« كتبت والذهن فاتر ، من وهن الدفاتر ، والتبييض والتسويد ، والتقييد والتسديد ، والترجمة وكثرتها . والهمة وفترتها ، والماهية وقلتها ، والنفس وذلتها ، وراتبي لا يكفي أجرة البيت ، ولا يفي ثمن الماء والزيت ، وبالأمس وعد الوكيل بالزيادة واعتذر اليوم بالاصيل على العادة »

وقد خلف عبد الله باشا فكرى بعض الآثار الادبية مثل « نظم اللآل فى الحكم والأمثال » « والمقامات الفكرية فى المملكة الباطنية » و « الفوائد الفكرية للمكاتب المصرية »

وله شرح على ديوان حسان بن ثابت لم يتمه . وله كتاب « ارشاد الالبا الى محاسن أوربا » .

وقد مات دون أن يتمه فأنجزه ابنه أمين باشا فكرى كما جمع كثيرا من كتاباته وقصائده فى كتاب دعاه « الاثار الفكرية »

أما النوع الثانى من مدرسة المقلدين فهم الندماء ، وقد تقدم لحضراتكم نموذج منهم من فوق هذه المنصة فى شخصية السيد على أبى النصر

والمنادمة أيها السادة فن صعب ، يحتاج الى عدة صناعات ، فقد يكفى العالم علمه والوزير تدبيره ، والقائد بأسه وخبرته ، والشاعر نظمه وإنشاده ، أما النديم فلابد له من العلم فى حين ، ومن الرأى فى حين ومن اللهو والفكاهة فى حين آخر ، ومن الكياسة والظرف فى جميع الأحيان . وإذا استغنى النديم عن العلم فى العصور التى يجمد فيها العلم أو يتلبس بوقار الدين فان يستغنى فى جميع الحالات عن الفطنة والحذق والنفاذ الى طبائع النفوس وسرعة البديهة فى استطلاع أحوال الرضا والغضب والتبسط والانقباض والاحتيال على الترفيه والتسرية ، وعرض المطالب فى أوقاتها والايماء بالاشارة الناضجة فى مناسباتها ، والتلطف فى أحاديث الجد والشدة حين تلجىء الضرورة اليها ، وحفظ الكرامة مع هذا كله حفظا للمنزلة واستيفاء للمنادمة .

ثم إن الأضحاك ليس بالشىء الميسر للنديم فى جميع أحواله ، فقد يفتر طبعه ، أو يخبو ذهنه فى ساعة من الساعات ، وقد يفهم النكتة على وجه لايفهمه سامعوه ،

فلا غنى له إذاً عن رياضة الناس على سماع نكاته واستحسانها وإن سخفت ونبت بها بعض الأذواق .

فالمنادمة - على لطفها ورقتها - صناعة عسيرة شاقة لايحذقها النديم ، ولا يبرع فيها الا بعد مران طويل ، ورياضة عصية .

وقد كان عظماء مصر وأعيانها ، وأمراؤها فى القرن الماضى يتشبهون فى مظاهرهم بعظماء العصور السالفة ، ويودون أن يروا أنفسهم فى حال تشبه تلك الحال القديمة وحاشية تماثل تلك الحاشية ومجالس تحي مجالس الأمارة التى يسمعون بها أو يقرؤون عنها .

ولذلك كانوا يعقدون فى بيوتهم وقصورهم مجالس يختلف اليها العالم والشاعر والنديم وطالب الحاجـــة ، ومن يبغى الجاه والشهرة والتعلق بأذيال العظماء ، وينصتون فيها الى النكات المتبادلة بين الحاضرين والنوادر المروية عن الملوك الغابرين والحكام والسروات السالفين ، والمطارحات والمساجلات الأدبية التى تجرى بين الشعراء والأدباء على حد ما كان معروفا فى مجالس الخلفاء والأمراء فى العصر العباسى والعصور التالية له . ووجد الندماء من يشجعهم ويعنى بهم ويغدق عليهم النعم ؛ ويمد لهم أسباب الجاه والثروة وقضاء الحاجات ، فعملوا على إتقان فنهم وكثر التنافس بينهم ومن هنا نشأ أدب المنادمة .

على أن هذا الأدب لم يختلف فى أغراضه ، والثوب الذى ظهر فيه ، والدوافع التى أدت اليه عن مثله فى عصر الأيوبيين والفاطميين إلا بمقدار ما تختلف بديهة عن بديهة ، ومقدرة عن مقدرة فى سياق النكتة ونظم اللغز ، وحبك التاريخ ، والاجادة فى المناسبة .

ومن أشهر هؤلاء الندماء فى عصر اسماعيل السيد على الليثى فكان يجيد شعر المناسبات من تسجيل فكاهة أو تهنئة أو تعزية أو مواساة أو مديح ، ولم يكن الشعر الغرض المقصود بالاتقان والأحكام عنده أو عند سامعيه ، وإنما هو شاعر لأنه نديم . وقد نال الحظوة لدى الخديو اسماعيل، وصحبه فى سفره إلى الاستانة

سنة ١٢٩٠ هـ ١٨٦١ م وكان الأدباء يتسابقون إلى مطارحة الليثى ويتفاخرون بمكانته .

ومن شعره يرثى محمود باشا الفلكى :

أرى النيازك عن سام من الفلك مذعورة أصبحت تصبو إلى الدرك
كالطير فاجأها البازى وأذهلها فحاكت البرق وانقضت عن الحبك

ويقول فى آخرها

الصبر يا نفس واستبقى مناجحه أو فالتصبر إن تبغى الهدى فلك
حل القضاء وناعى المجد أرخنا « قد مات محمود باشا المسند الفلكى »

١٣٠٣ هـ

وكثيرا ما يطلب الى النديم أن يسارع الى القول فيما يقع بين يدى مولاه من الطرائف والنوادر ، وأن يثبت ارتجاله باثبات المناسبات كلها واحصاء الاسماء والوقائع التى تنفى الاستعارة والاقتباس . ومن أمثلة ذلك أن كبيراً من الكبراء كان يفرغ تفاحة فى يده بالمدية ليشرب فيها فانقصفت المدية فى أثناء ذلك، فنظر الكبير الى الشيخ الليثى كأنما يستدعيه الى القول فاذا هو يرتجل هذين البيتين :

عزت على الندمان حتى أنهم تخذوا لها كأسا من التفاح
ولدى اتخاذ الكأس منه بمدية لان الحديد كرامة للراح

وله اللامية المشهورة التى قالها بعد الفتنة العرابية مستعطفا طالبا الصفح عن الجناة :

كل حال لضده يتحول فالزم الصبر إذ عليه المعول
يافؤادى استرح فما الصبر إلا مابه مظهر القضاء تنزل
قدر غالب وسر الخفايا فوق عقل الأريب مهما تكمل
رب ساع لحتفه وهو ممن ظن بالسعى للعلا يتوصل

إلى أن يقول عن الثائرين

ويح قوم سعوا لإدراك أمر دون إدراكه الجبال تزلزل
ما أضروا عليه إلا أضروا بأناس من نابه أو مغفل

وعلى هذا النمط تكون مواساة المجالس والندماء فى خطوب الثورة العرابية .

ومن أدباء هذه المدرسة التقليدية من جمع بين النوعين نوع أدباء الدواوين ، والندماء ، ومن أشهرهم وأبرعهم محمد عثمان جلال ، فقد كان بثقافته وتعليمه يؤهل نفسه للوظيفة ، وبطبعه وبديهته نديماً محبوباً . ولد « بونا القس » إحدى قرى بنى سويف سنة ١٢٤٥ (١٨٢٩) ودرس فى صغره اللغات بمدرسة الألسن فى حى الأزبكية،ثم التحق بقسم الترجمة الذى أنشأه رفاعه الطهطاوى ، وبعد ذلك انتدبته الحكومة للأعمال الكتابية فى وزاراتها ، ثم استوزره الخديو توفيق ، واتخذه فى نفس الوقت نديماً وسميراً لايفارقه فى رحلاته إلى جهات القطر المصرى .

على أن لمحمد عثمان جلال ميزة على غيره من الندماء ، لأنه كان يمثل الطبع المصرى المرح الذى يجيد النكتة المقبولة التى يفهمها الناس جميعا حضريهم وقرويهم ، ولعل مولده بالريف ونشأته بالقاهرة قد هيأت له تفهم الروح المصرية . ولولا تلك القيود التى فرضتها مدرسة المقلدين على أدبه وإنتاجه وشعره وترجمته لكان أول أديب فكه نقادة فى العصر الحديث ، ولكان لنا منه موليير أو أناتول فرانس أو برنارد شو .

كان يجيد الترجمة وقد أبت عليه مصريته إلا أن يصبغ كل ما يترجمه بصبغة مصرية بحتة ، وقد ترجم ما يوافق طبعه ويلائم ذوقه فاختار ترجمة أمثال لافونتين الشاعر الفرنسى وحكاياته ، وذلك لأنه مجبول على ضرب الأمثال وسرد الحكايات كما ترجم بعض روايات موليير الشاعر الفرنسى المسرحى الهزلى المعروف ، وذلك لأنه مطبوع على النقد والتهكم والهزل .

قال أحمد شفيق باشا فى كتابه « مذكراتى فى نصف قرن »وهو يذكره عند إلمامه بطلائع النهضة الفكرية :

« ترجم أساطير لافونتين وهى مجموعة قصص خرافية صيغت على لسان الطير والحيوان تتضمن عبراً ومواعظ بالغة . وقد أحسن جلال بك اختيار الأمثال العربية التى تقابل هذه المعانى فى اللغة الفرنسية ، وسماها العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ » .

ومما جاء فيها مثل البخيل والدجاجة :

كان البخيل عنده دجاجة تكفيه طول الدهر شر الحاجة
فى كل يوم مر تعطيه العجب وهى تبيض بيضة من الذهب
فظن يوما أن فيها كنزاً وأنه يزاد منه عزا
وشقها نصفين من غفلته إذ هى كالدجاج فى حضرته
ولم يجد كنزاً ولا لقيه بل رمة فى حجرة مرمية
فقال لا شك بأن الطمعا ضيع للانسان ما قد جمعا

وكأنى بعثمان جلال لم يؤثر ترجمة لافونتين ولا مسرحيات موليير استعظاماً للأدب الفرنسى ولكن لأن فيها ما يشبه النكات المصرية والأدب المصرى فكأنه بترجمته هذه يقول : هذه بضاعتنا ردت الينا . أو ليست أمثال لافونتين مقتبسة معظمها من كليلة ودمنة ؟!

وقد كان له أسلوب سهل فى الترجمة الشعرية وإن كان لا يسمو فى البلاغة ولا يسلم من الخطأ .

وهذا نموذج آخر من ترجمته فى قصته السبع حين شاخ من كتاب العيون اليواقظ

السبع وهو الضيغم المشهور أودت به السنين والشهور
وأعجزته نوبة الشيخوخة وتركت جبهته مسلوخه
ثم انحنى وفارقته الهمة وصارت الأيام مدلهمة
وانحط فى الغابة كل الحطة ونقرته فى الجبين البطة
واستحقرته فى الخلا الرعية وطلب الموت بصفو النية
وكيف لا والفرس اقتفاه أوسعه ضرباً على قفاه
والعجل والذئب على عذابه هذا بقرنيه وذا بنابه
وكل ذا وسبعنا لا ينهر على خروج الصوت ليس يقدر
بل نام للمكتوب والأقدار وفوض الأمر لحكم البارى
إذ نظر الحمار جاء عنده وزاده رفسا وأدمى خده

فقال تم الذل والعذاب فوا فضيحتاه يا أصحاب
الموت أولى من أذى الحمار والنار خير من حلول العار

ومن هذه القطعة وسابقتها ندرك تلك الملكة التى وهبها عثمان جلال فى النظم وسهولته وهى تنبىء عن استعداد عظيم للرواية والقصة على الرغم مما بها من ضعف فى الصياغة .

وقد كانت هذه الملكة تنزع به الى نظم الزجل غالباً والشعر أحياناً فى وصف ما يقع له من النوادر والفكاهات والرياضات ، ومن ذلك زجله فى الأزهار، وزجله فى المأكولات، وأقوم منهما كليهما روايته المسرحية عن المخدومين والخدم وهى باكورة فى وضع الروايات المصرية وتمثيل البيت المصرى والمجتمع الوطنى

ومن ميله للرواية والقصة ترجم رواية « ترتوف » لموليير ومصرها حتى فى اسمها فسماها « الشيخ متلوف » وقد مثلت مراراً

ومن زجله الظريف بيتان ارتجلهما أمام رياض باشا يشكو تأخره عن أقرانه الموظفين فى الترقية :

الخير عم الناس وفاض ما حد الا واستكفى
الا أنا ياسيدى رياض « وقعت، من قعر القفة »

ومن فكاهاته أنه كان مدعوا فى دار محمد بك سكر الكتبى وأحد أدباء عصره للطعام مع بعض الأصدقاء، فاستبطأوه وعندئذ دخل رب الدار الى الحريم ، وبينما هو كذلك إذ سمع الضيوف دقا بالهاون فتساءل بعضهم : ماذا ؟ ألا يزالون يهيئون الطعام ؟ فأجاب محمد بك عثمان جلال : —

إنهم يكسرون راس سكر .

ومما يروى عن سوقه الأمثال فى نكاته: أن « رشمه » نفيسة من التى تجمل لجمير الركوب الفارهة ضاعت من مخازن قصر عابدين ، فدخل الموكل بحفظها على مترجمى الديوان وهو صاخب وأخذ يصيح : أفى قصر الأمير يجترئون على السرقة ؟ وكان جلال بك فى ديوان الترجمة يومئذ فقال له مازحا : لاتحزن يا باشا . تبقى فى بقك وتقسم لغيرك ! .

وربما قيل: كيف نسلك من له مثل هذه الروح، وهذا التجديد فى الغرض ضمن أدباء المدرسة التقليدية، ولكن الندماء فى عصره كانوا يشاركونه فى هذه الروح المرحة ويجتهدون أن يدخلوا السرور على من يحيط بهم من العلية والأصحاب، ونوادر السيد على الليثى مشهورة وفكاهاته معروفة، وربما لم يكن له طبع عثمان جلال، ولكنهما يهدفان لغرض واحد.

لقد حاول عثمان جلال أن يجدد فغلب على أمره، وظل من تلاميذ المدرسة التقليدية وهاك نموذجا من نثره ندرك به إلى أى مدى كان مدينا للمدرسة القديمة مدرسة السجع والجناس والرموز والتواريخ. لقد ترجم رواية بول، وفرجينى للأديب الفرنسى «دى سان بيير»، ولكن جنت عليه المقامة وأسلوبها فتقيد فيها بالسجع فى كل فقرة وفاصلة من عنوان الرواية إلى كلمة الختام فسماها «الأمانى والمنة فى حديث قبول وورد جنة» وقال فى تصدير الكتاب: «أخرجته من الطباع الأفرنجية، وجعلته على عوائد الأمة العربية، فمن تصفحه بعين النقد، رأى القد على القد، ومن قاسه بمقياس المقابلة، وطبق آخره وأوله، رأى فذأ قرن بتوأم، وعلم أن من ترجم فقد ترجم، ثم كتبته على ورق الجنة، وسميته قبول وورد جنة لمقارنة مخرج الاسمين، ومطابقته فى لفظه اللغتين»

ونراه غالى فى التمصير فترجم بول بقبول، وفرجينى بورد جنة، ونراه تعسف فى الأسلوب وتقيد بالسجع والمحسنات شأن أدباء مدرسته. وله كتاب «التحفة السنية فى لغتى العرب والفرنسوية» على شكل ألفية ابن مالك.

وممن ينتمى إلى هذه المدرسة بنوعيها، محمود صفوت الساعاتى، وصالح مجدى، والسيد على أبى النصر، والشيخ حسين المرصفى وغيرهم ممن لم يبلغ مبلغهم فى الشهرة والانتاج.

مدرسة المجددين

كان عجبا حقا ألا تظهر فى مصر مدرسة حديثة فى الأدب لعهد اسماعيل بعد تلك البعثات المتوالية التى أرسلت إلى أوربا منذ عهد محمد على، وعادت حاملة كثيرا

من ثقافة الغرب ، وعكفت على ترجمة كثير من الكتب ، مغذية اللغة العربية بشتى الأساليب ، والتعبيرات . ومطلعة على فنون فى الأدب لاعهد لأدبائنا بها من ملاحم وقصص ومسرحيات ، وعلى أغراض فى الأدب لم يخطر لأدباء العرب أن يخوضوا فيها ، ولا سيما الأغراض الاجتماعية والسياسية والخلقية والتربوية .

وكان عجبا حقا ألا تتطور الأساليب وتتحرر من تلك القيود اللفظية التى زادتها ركة وإعجاما ، وتجزل عبارتها بعد مانشر بمطبعة بولاق وغيرها منذ عهد محمد على من آثار السلف ولا سيما كتب الأدب الرفيع التى تكسب المطلع عليها والمهتم بها متانة فى العبارة وقوة أسر ورشاقة لفظ مع سهولة وسلاسة كالأغانى ، والكامل ، والمثل السائر ، ومقدمة ابن خلدون ، والعقد الفريد ، ونفح الطيب ، وحياة الحيوان وغير ذلك من الكتب القيمة ودواين كثير من الشعراء المبرزين فى الأدب العربى. وقد غمرت مطبعة الاستانة ومطابع بيروت ، ومطبعة بولاق العالم العربى بهذه الآثار الجليلة .

لاريب أن النفوس كانت مهيأة لتقبل الأعراض الجديدة فى الأدب ، وأن الأذهان كانت معدة لتحطيم تلك القيود اللفظية والمعنوية التى فرضتها عصور الضعف على الأدب العربى وأن كثيرا من الملكات القوية ، والعقول النيرة كانت منتظرة من يفتح لها الطريق ويقودها إلى الجادة حتى تنتج وتثمر وتبتكر ، وتغذى الأدب العربى بالموضوع الطلى ، والأسلوب القوى ، والفكر العبقرى .

ولقد شاء حظ مصر السعيد ، وحظ الأدب العربى المجدود أن ينزل بها فى عصر اسماعيل السيد جمال الدين الافغانى ، وكان أعجوبة عصره ، وقوة محركة عظيمة ، وثورة ملتهبة على التقاليد والضعف والآفات الاجتماعية والخلقية ووجد فى مصر تربة خصبة ، وعقولا مهيئة ونهضة قد خطت خطوات لابأس بها ، فأخذ يوجه ويدبر ويرشد ويرسم خطط الاصلاح فى مختلف نواحى الحياة .

وكان بيته مدرسة يفد اليها عظماء الرجال وأحرار النفوس وخاصة المفكرين والمثقفين ، وكان يتخذ من المقهى مدرسة أخرى يخلق فيها حوله كثير من هؤلاء أمثال عبد الله نديم ، وأبو السعود ، ومحمود سامى البارودى ، وعبد السلام المويلحى

وأخيه ابراهيم المويلحى ، ومن الشباب أمثال : محمد عبده ، وابراهيم اللقانى ، وسعد زغلول ، وعلى مظهر ، وسليم نقاش ، وأديب اسحق .

فى هذه المدرسة حول مجرى الادب ، ونقل من حال الى حال ، فبعد أن كان عبد الارستقراطية ، وخادم الملوك والامراء والاعيان يسبح بحمدهم ويشيد بمجدهم ، ويتزلف لهم ، ويحسن مساوئهم ، ويذم أعداءهم ، أخذ يلتفت إلى عامة الشعب فيطالب بحقوقهم ، ويدافع عن مظالمهم ، ويهاجم من اعتدى عليهم كائنا من كان ، يبين للناس سوء حالهم ومواضع بؤسهم ، ويبصرهم بمن كان سبب فقرهم ، ويحرضهم على الحرية ، والخروج من ظلمات الجهل والذلة والفقر والاستعباد ، وألا يخشوا بأس الحاكم فليست قوته إلا بهم ولا غناه إلا منهم ، وأن يلحوا فى طلب حقوقهم المغصوبة وسعادتهم المسلوبة ، فكان أدبا مشرفا على الامراء لا سائلا متملقا للأغنياء .

وهاكم مثلا من دروسه التى كانت سببا فى اشعال الثورة الفكرية والادبية قال فى سنة ١٨٧٨ « إنكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد وربيتم فى حجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم ، وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتكم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم — ومواد غذائكم التى تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم — بالعصا والمقرعة والسوط ، وأنتم معرضون فلو كان فى عروقكم دم فيه كريات حيوية ، وفى رءوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيتم بهذه المسكنة وهذا الذل - تناوبتكم أيدى الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ، ثم العرب والاكراد والمماليك ، وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، وأنتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة لا حس لكم ولا صوت .

انظروا أهرام مصر ، وهياكل منفيس وآثار طيبة ، ومشاهد سيوه ، وحصون دمياط ، فهى شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم .

هبوا من غفلتكم ! اصحوا من سكرتكم ! عيشوا كباقى الأمم أحراراً سعداء » .

كان جمال الدين يقول هذا لاتباعه وحوارييه ، ويريد منهم أن يكونوا رسلا تنطق بدعوته ، وتنفذ خطته ، فحبب اليهم الكتابة ، ورسم لهم طريقتها الصحيحة ، وأوحى إليهم بالمعانى الجديدة التى يكتبونها ، وشجعهم على إنشاء الجرائد ، يكتب فيها ويستكتب لهم من توسم فيه المقدرة . فقد شجع أديب اسحق بعد أن اتصل به اتصالا وثيقا وتتلمذ له طويلا على أن ينشىء جريدة اسمها « مصر » وكان جمال الدين يرسم له خطة السير فيها ويكتب بنفسه بعض مقالاتها باسم مستعار هو « مظهر بن وضاح » ، ثم أوعز إليه أن ينتقل إلى الأسكندرية ، وأن ينشىء جريدة أخرى سماها « التجارة » ، وقد كتب جمال الدين فى هاتين الصحيفتين مقالات تلتهب حماسة ووطنية منها مقال فى الحكومات الشرقية وأنواعها وآخر سماه « روح البيان فى الانجليز والأفغان » وكان لهاتين المقالتين أثر بعيد لفت الأنظار إلى جريدتى أديب اسحق ، فلقيا رواجاً كبيراً , ولكن رياض باشا أغلقهما .

وإذا أردنا أن نعرف سمة هذا الأدب الجديد وطابعه وأسلوبه فلنقرأ فاتحة صحيفة « التنكيت والتبكيت » للسيد عبد الله نديم ، ولنستمع الى رأيه فى الأسلوب الحديث وما يجب أن تكون عليه الكتابة الصحفية ، قال إنه لا يريد منها « أن تكون منمقة بمجازات واستعارات ولا مزخرفة بتورية واستخدام ، ولا مفتخرة بفخامة لفظ وبلاغة عبارة ، ولا معربة عن غزارة علم وتوقد ذكاء ، ولكن أحاديث تعودناها ولغة ألفنا المسامرة بها ، لا تلجىء إلى قاموس الفيروزابادى ، ولا تلزم مراجعة التاريخ ، ولا نظر الجغرافيا ، ولا تضطر لترجمان يعبر عن موضوعها ، ولا شيخ يفسر معانيها وإنما هى فى مجلسك كصاحب يكلمك بما تعلم ، وفى بيتك كخادم يطلب منك ما تقدر عليه ، ونديم يسامرك بما تحب وتهوى » .

هذه كانت طريقة تلك المدرسة الجديدة ، يريدون أن تصل كلماتهم إلى الأسماع وأن يفهمها الناس ، ويتأثروا بها ، لا أن تكون مستغلقة عليهم ، مكبلة بأصفاد من الصنعة والتزويق يخفى معالمها ، ويبهم معانيها .

وقد بلغ عدد الصحف المصرية التى ظهرت فى عهد اسماعيل ، ولا سيما فى آخر أيامه عشرين صحيفة وقد أطلق لها حرية الكتابة وكان يميل الى هذه الحرية فى أخريات

حكمه حين اصطدم بالمطامع الأوربية ، وكانت هذه الصحف تندد بسياسة الأوربيين وجشعهم ونواياهم ، وتشعر الناس بتدخلهم السياسى وتحمل عليهم حملات شديدة قوية فكان ذلك يروق اسماعيل . ولكن لم يكن يرضى بحال أن توجه إليه هذه الصحف نقداً ما ، ومن تجرأ على ذلك كان له الويل والثبور كما حدث لصاحب الاهرام حين أشار إلى مال صرف من الخزينة ، ولم يعلم مصيره ، وكاد اسماعيل يبطش به وبجريدته لولا أن ارتمى فى أحضان فرنسا لحمته .

وكما كان جمال الدين مصدر هذه الحركة وموجهها ، كان أحمد فارس الشدياق صاحب الجوائب التى صدت فى الاستانة ١٨٦٠ نموذجا للكاتب الصحفى ، وجريدته قدوة تحتذى ، لأن صاحبها افتن فى تحريرها وتخير موضوعاتها فجمعت بين اللغة والسياسة والادب ، وشتى ضروبه وأبوابه بما فى ذلك القصائد البليغة لكبار شعراء العربية ، فأقبل الناس عليها حتى لم تدع بلداً عربيا إلا دخلته ووجدت فيه رواجا . فكانت هذه الجريدة أكبر مشجع للمصريين على متابعة الجهد الصحفى ، وقد وجدوا من اسماعيل باشا ميلا للأدب والعلم وتقدير الجهود الوطنية ولا سيما تلك التى تحارب الأوربيين .

لم يكن هم هذه المدرسة الحديثة قاصراً على الكتابة بل التفتوا التفاتة لها خطرها فى الاصلاح السياسى والاجتماعى ، وهى أن من أهم أسباب غفلة الشرق ضعف الخطابة وانحصارها تقريبا فى خطب المساجد ، وهى خطب لاتمس الحياة الواقعة بحال من الاحوال وإنما هى عبارات دينية محفوظة ، ومعان متكررة مألوفة ، خالية من الحياة والشعور لاتحرك قلبا ، ولا تهز وجدانا ، ولا تنير سبيلا .

فكتب السيد عبد الله نديم مقالا قويا فى قيمة الخطابة وأثرها فى تاريخ الاسلام ودعا الى أن يحضر خطب المساجد أعرف الناس بشئون الحياة ،وأقدرهم على التأثير وأن تشرح هذه الخطب الموقف الحاضر فى وضوح ، وتبين الاخطار المحيطة بالأمة فى جلاء وأن يتبرع القادرون بقدر من المال يخصص لهذا الغرض ، ويتفقوا مع فى ديوان الاوقاف ليسمح بالقاء هذه الخطب فى المساجد ، ثم تطبع وتنشر فى أنحاء البلاد يصل صداها الى كل قرية وبلدة ، وأعلن استعداده للاشتراك فى إعدادها ،

ووضع خطبة نموذجية توضح غرضه .

ومما قاله فى هذه المقالة «ألسن الخطباء تحيي وتميت . حكمة اذا عقلت معناها وقفت على سر الخطابة وحكمة حدوثها ، وعلمت أنها للعقول بمنزلة الغذاء للبدن ، وكانت الخطابة فى الاعصر الخالية غير معلومة إلا فى أمتى العرب واليونان . فكانت ساحتها فى جزيرة العرب عكاظا ، ومنابرها ظهور الابل ، وهذه الساحة كانت معرضا للافكار يجتمع فيه الخطباء والبلغاء والشعراء ، وأمم كثيرة من المجاورة للجزيرة فيرقى الخطيب ظهر ناقته ويشير بطرف ردائه وينثر على الاسماع دررا وبدائع ثم يباريه آخر ، ويعارضه غيره فتتضارب الافكار وتتنبه الاذهان ، وتحيا الهمم ، وتتحرك الدماء ويرجع كبار القبائل وأمراؤها الى مايشير إليه الخطيب إن صلحا وإن حربا .

هذا هو مبلغ اهتمام هذه المدرسة الحديثة بالنثر الفنى كتابة وخطابة . فقد جددت فى الموضوعات وفى الاساليب وأخذت تجعل من اللغة عاملا فعالا فى الاصلاح وصورة صحيحة لشعور الامة وآمالها وأحزانها . وكان بودى أن أعرض لأثر هذه المدرسة فى الشعر الا أن ذلك ليس من غرضى فى هذه المحاضرة ولايتسع له الوقت وحسبنا أن نعلم أن البارودى كان من آثار هذه المدرسة وان عمل فى اخراجه وبلوغه هذه القمة العالية عوامل أخرى

ومن خير من تأثر بهذه المدرسة الحديثة نابغة عصره ، وأعجوبة زمانه فى الذكاء وقوة العارضة ، وطلاقة اللسان ، وبليغ الحجة ، وسرعة البديهة ، ومن ملك ناصية البيان كتابة وخطابة ، وعارض فحول الشعراء جزالة وقوة وضخامة معنى ، السيد عبد الله نديم . ولد فى سنة ١٢٦١ هـ ١٨٤٥ م من أب فقير كان أول أمره بمديرية الشرقية ثم رحل الى الاسكندرية ، وعمل فيها نجاراً للسفن بدار الصنعة ، ثم لم يعجبه هذا العمل، فاتخذ مخبزاً صغيراً يصنع فيه الخبز ويبيعه ويحصل من ذلك على الكفاف من العيش . وقد أرسل مصباح ابنه عبد الله إلى المكتب فتعلم ما يتعلمه الصبية فى عهده ، ولكنه أظهر نبوغا وذكاء ورغبة فى مواصلة الدرس فأرسله الى مسجد ابراهيم باشا، وهو صورة مصغرة من الأزهر ، ولكنه كره حياته ودروسه

وجفافها وحبب اليه نوع آخر من الدراسة هو الأدب،فكان يغشى مجالسه ويسمع شعر الشاعرين وزجل الزجالين ونوادر المتماجنين وقصائد الراوين فيصغى الى كل ذلك في نهم كأنه كله آذان ، ويدرك من غير وعى أن هذا بابه وهذا فنه وأنه انما خلق لذلك لا للنحو والصرف .

وقد منح حافظة لاقطة . وقدرة على التقليد فائقة فأخذ يحاكى بعد ما اختزن ويغنى بعد ما سمع فأحيانا يوفق وأحياناً يخفق .

والى جانب ذلك تعلم درساً فى منتهى القيمة ، وذلك أنه نشأ فى صميم الأحياء الشعبية،وكان له حس مرهف ويقظة نفس ، فأحاط بلغة الشعب وعاداته وأمثاله ونوادره ، ووجوه المعاملات وصنوف التصرفات ونقش كل ذلك فى لوحات واضحة فى نفسه الحساسة وكان له أكبر أثر فى أدبه . ولكن أباه ضاق به ذرعا لأن هذه الصنعة لن تجلب له رزقا فطرده ، واتجه اتجاها غريباً إذ ابتدأ يتعلم فن الاشارات البرقية ويتكسب منه ونقل الى القاهرة فى مكتب القصر العالى حيث تسكن والدة الخديو اسماعيل ، وعاد اليه فى القاهرة حنينه الى مجالس الأدب فاتصل بمجلس محمود سامى البارودى،وهو مجلس عامر ففيه أدب قديم يعرض ، وأدب حديث ينشد ، وعرض للمعنى الواحد صيغ صياغة مختلفة ، ونقد قيم لهذا ولذلك يتخلله نوادر فكهة ، وأحاديث الأدب الحلوة . وتعرف فى هذا المجلس على كثير من أدباء عصره أمثال البارودى ، وأبى النصر ، والساعاتى . ولكنه غلط غلطة فى عمله بالقصر العالى فطرده خليل أغا المتحكم فى مصر لذياك العهد فسدت فى وجهه أبواب الرزق وتحاشى الناس مخالطته .

وقد جرت له بعد ذلك تجارب كثيرة فمرة معلم صبية ، وآونة يشتغل بالتجارة ولكن تجارته قد بارت . وتنقل فى كثير من أنحاء القطر ، ثم اتصل بشاهين باشا كنج بطنطا وكان رجلا محبا للأدب له ذوق رقيق ، وظرف ووجد فى عبد الله نديم متعته . وقد كاد عبد الله نديم أن يكون من مدرسة الندماء حتى ذلك العهد يعيش بأدبه ، ويمدح كل من يعطف عليه ، ويدخل السرور على أولياء نعمته بالملح والطرف والنكات . وقد حدث له فى هذه الحقبة أن كان جالسا ذات يوم فى قهوة

أيام المولد الاحمدى ومعه طائفة من الأدباء منهم السيد على أبو النصر والشيخ احمد أبو الفرج الدمنهورى الأديب الماجن فطلع عليهم اثنان من الادباتية وهم من تلك الطائفة المعروفة التى كادت تنقرض ان لم تكن قد انقرضت فعلا ، وقد مرا على الحاضرين حتى وصلا الى السيد عبد الله نديم فقال أحدهما :

انعم بقرشك ياجندى والا كسنا أمال يا افندى
لحسن أنا وحياتك عندى بقى لى شهرين طول جعان

فأجابه عبد الله نديم على البديهة :

أما الفلوس أنا مديشى وانت تقول لى ما مشيشى
يطلع على حشيشى أقوم أملص لك لودان

فرد الادباتى ، ورد عبد الله نديم ، وظلا كذلك ساعة حتى هزم الأدباتى وانصرف وأبلغ السيد على أبو النصر هذه الحادثة الى شاهين باشا كنج فأقام حفلا كبيرا دعا فيه كبار الادباتية ليباروا السيد عبد الله نديم ، وقد باراهم وغلبهم جميعا .

وكما كان بارعا فى هذا النوع فقد كان يجيد النظم فى الشعر الجيد الفصيح . وفى أحد مجالس شاهين باشا كنج تحامل عليه كثير من الادباء فاقترح عليه بعضهم إنشاء قصيدة يعارض بها دالية المتنبى المشهورة التى مطلعها :

أقل فعالى بله أكثره مجد وذا الجد فيه نلت أو لم أنل جد

وقال إنه لايتأتى لشاعر أن يعارض قوله فى القصيدة :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له مامن صداقته بد

فغضب عبد الله نديم وأمسك القلم وأنشأ قصيدة دالية أولها :

سيوف الثنا تصدا ومقولى الغمد ومن سار فى نصرى تكفله الحمد

الى أن قال معارضا ذلك البيت الذى ظنه المتعنت معجزا

ومن عجب الايام شهم له حجا يعارضه غر ويفحمه وغد
ومن غرر الاخلاق أن تهدر الدما لتحفظ أعراض تكفلها المجد

وأردفهما بخمسة أبيات على شاكلتهما

وفى هذه القصة وسابقتها بيان لفهم المدرسة القديمة للشعر والفصاحة فهو عندهم مغالبة لسانية ومساجلة كلامية، ولباقة منطق وسرعة جواب وارتجال

وقد كان عبد الله نديم من تلاميذ تلك المدرسة القديمة حتى اتصل بالسيد جمال الدين الافغانى. فظهر أسلوبه المرسل الذى سمعتم شيئا منه وقد كان يؤثر هذا الأسلوب ويتحرر من كل قيود المحسنات فى كتابته الصحفية بيد أنه ظل متمسكا بالاسلوب المقامى فى رسائله . ومن بدائعه فى العدد الاول من (التنكيت والتبكيت) وقد أدرك أن القصة أحب أنواع الادب الى النفوس . فلجأ اليها واتخذها أداة طيعة لأغراضه الحديثة ، تلك القصة الرمزية التى عنوانها « مجلس طبى لمصاب بالافرنجى » وهى قصة شاب صحيح البنية قوى الاعصاب جميل الصورة ، لطيف الشكل ، فى رقة ألفاظ وعذوبة كلام ، وفى عزة ومنعة ، لايشاركه فيها مشارك ، يلتف حوله أهله يعززونه ويؤازونه حتى لاتمتد اليه يد عدو ولا حيل محتال - وبينا هو فى ذلك تسلل اليه أحد الماكرين يتظاهر بالصلاح والتقوى ، ويضمر الختل والغدر ، فأسلمه أهله اليه انخداعا به . فعرضه هذا الماكر على الاسواق يريه من الغوانى من تعارض الشمس بحسنها ، وتكسف البدر بنورها ، فمانع حينا ، ولكنه رأى أهل بيته قد وقعوا فى مثل هذه الغواية ، وانغمسوا فى مثل هذه الضلالة فسار سيرهم ، وترك النفار ، والإباء ، وسار فى الطريق الذى رسمه المنافق الخادع ، فما سار فيه حتى أصيب بالداء الافرنجى (الزهرى) فاصفر وجهه ، وارتخت أعضاؤه ، وذهبت بهجته ، وغارت عيناه ، وتشوه وجهه ، وتبدلت محاسنه بقبائح تنفر منها الطباع ، وتمكن الداء منه وسرى فى دمه وعروقه ، فصار يقلب طرفه لعله يجد من قومه من ينقذه من مرضه . الخ

وهذه قصة رمزية تنقد تدخل الدول الأجنبية من مراقبة ثنائية، وإنشاء صندوق الدين وغير ذلك ، ولقد كان بارعاً فى توريته بكلمة « الداء الأفرنجى »

هذا أيها السادة نموذج من أسلوب القصص المرسل وهو نموذج طيب للمدرسة الحديثة على أن له بجانب ذلك أسلوباً آخر شأن كثير من كتاب جيله ، لاهؤلاء الكتاب الذى تربوا ابتداء على يد جمال الدين أمثال محمد عبده ، وابراهيم المويلحى

وسعد زغلول ، وابراهيم اللقانى ، وأديب اسحق . فهؤلاء أسلوبهم جديد وغرضهم جديد وموضوعاتهم جديدة، وإليكم نموذجاً قصيراً من أسلوبه المقامى وقد تعمد أن يقتبس الفاصلة الثانية من آى الذكر الحكيم .

« لاحول ولا قوة إلا بالله ، اشتبه المراقب باللاه ، واستبدل الحلو بالمر وقدم الرقيق على الحر ، وبيع الدر بالخزف ، والخز بالحشف ، وأظهر كل لئيم كبره ، إن فى ذلك لعبرة ، سمعاً سمعا فالوشاة إن سعوا لايفعلوا ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فكيف تشترون منهم القار فى صفة العنبر ، وقد بدت البغضاء من أفواههم وماتخفى صدورهم أكبر ، وكيف تسمع الأحباب لمن نهى منهم وزجر ، ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدجر . . . الخ

على أنه كان يؤثر الترسل ولا يلجأ الى هذا الأسلوب المتكلف إلا نادرا ، ولكى يظهر براعته وتفوقه على أدباء المدرسة التقليدية .

ثم إنه كان فيما بعد خطيب الثورة العرابية الذى أجج نارها وأشبعها ضراما ، وكان يفجر الكلام تفجيراً فيبلغ من النفوس مايبلغ السحر ويحفزها على العمل والهياج والقتال ، متؤثراً فى كل ذلك بتعاليم جمال الدين ، وبما كان فيه من استعداد عظيم ، وموهبة لسانية فائقة جعلت قادة الثورة يقدمونه فى المحافل . كان جمال الدين يخطب الناس وكأنه يضربهم بالسياط ، وكان النديم يخطب الناس فيقابل بالابتسام يضحك لهم ويضحك منهم ويصلح شأنهم ، ويقبل قوله فى فرح ومرح، ولذلك كان أسف الناس عليه أعظم من أسفهم على جمال الدين حين أبعد كلاهما عن مصر الى الاستانة ، لأن سؤدد جمال الدين فى الخاصة وسؤدد النديم فى العامة .

وكم كنت أود أن أعرض نماذج أخرى من هذه المدرسة الحديثة التى مهدت لجيلنا الحاضر سبيل الكتابة والترسل ، ووجهت أنظارنا إلى آفاق جديدة من الأدب ولكن المقام لن يتسع لأكثر من هذا ، وأرجو أن أكون قد أعطيت فى هذه الصور السريعة العاجلة فكرة واضحة عن البيان فى عصر اسماعيل ، وألا أكون قد أثقلت عليكم . ؟

عمر الدسوقى
المدرس بمعهد التربية للمعلمات

الوحدة العربية

فى القرن التاسع عشر (١)

للأستاذ محمد أبو بكر ابراهيم

للعرب ـ كما للأمم القوية ـ صفات خاصة، ومميزات بارزة، جعلت لهم طابعا خاصا وشخصية خاصة بها يمتازون من غيرهم.

وترجع أسباب ذلك إلى أمور من بينها :

اعتزازهم بقوميتهم، وبكل مقوماتها اعتزازا قويا. فهم يعتزون بجنسيتهم العربية، ويفخرون بها، وهم يعتزون بلغتهم العربية، ويتعصبون لها، وهم يعتزون بوطنهم العربى، ويحبونه.

وكذلك حرصهم على تراثهم القديم الذى ورثوه عن آبائهم السالفين : من تقاليد، وعادات وآثار أدبية، وعلمية، وفنية. فهم محافظون عليه كل المحافظة ومهما يحدث فى هذا التراث من تجديد أو تعديل أو زيادة أو نقص ـ فان جوهره باق لايتغير أبدا : كالسبيكة من الذهب النضار، تصاغ حليا، ثم تعاد سبيكة مرة أخرى فلا يزيدها ذلك إلا بريقا وصفاء.

إن هذا كله كان ومازال مصدر حياة العرب، والرابطة الوثيقة التى تجمع بين قلوب العرب. سواء من سكن منهم الشام، ومن أقام بالعراق، ومن دخل مصر مقيما على ضفاف النيل وفى واديه، ومن توطن فى افريقية بالسودان وعلى شاطىء البحر الابيض، ومن هاجر منهم الى أمريكا أو غيرها من بقاع الارض، ومن وطن الجزيرة العربية الفيحاء.

---

(١) محاضرة ألقيت فى نادى دار العلوم يوم الاربعاء ٤ من يولية سنة ١٩٤٥

كان هؤلاء العرب متآلفين متآزرين لاتهولهم بوارق السيوف ، ولا تفزعهم لوامع الحتوف : عدوهم مقهور ، وطالبهم مأسور ، حتى لحقتهم فتنة عمياء أوقد نارها المستعمرون ، وأضرم أوارها الاجانب المغتصبون .

روع العرب فى القرن التاسع عشر أن وجدوا الشرق طعمة للغرب ، وأن وجدوا بلادهم العربية نهبا مقسما فى أيدى الأفاكين المستبدين ، فاحتشدت فى نفوسهم آلام قاسية ، وذكريات ثاوية ، واحساسات مبرحة ، دفعتهم بقوة وحرارة الى تلمس الوسائل للتخلص من هذه الجراح ، ولإعادة حياتهم القديمة .

هبوا من نومهم أفرادا وجماعات ، وقد اشتد بهم الظمأ الى الحرية التى حرموها والى الحياة التى يجب أن يحيوها . وظهر من بينهم رجال العلم والادب ، وأبطال السياسة والاجتماع ، يوجهون العرب الى الغايات البعيدة السعيدة وينادون بجمع كلمتهم و توحيد جهودهم . فظهرت فى كل أقليم نهضات قومية ، وثقافية ، وسياسية ، واجتماعية : شعارها العروبة ، ولحمتها وسداها : التعصب للعرب والعربية .

فالسوريون واللبنانيون والمصريون والحجازيون وغيرهم قد ارتبطت بلادهم بمواثيق العروبه فأخذوا يتعاونون بحكم القرابة ، والجوار ، والجنس ، واللغة ، والوحدة فى الغايات ، والمشاركة فى الوجدانات . وكان هدفهم هدفا واحدا يرنون اليه بأبصارهم ، ويعقدون عايه خناصرهم ويجمعون من أجـــله قواهم ، ألا وهو : إبعاد الأجانب ، والتخلص من نير استعبادهم ، ليرفرف على البلاد .جميعا علم السلام والحرية ، وعلم العرب والعروبة .

فكان التعاون بوفود الشعراء والكتاب والخطباء والمصلحين ، وبالجمعيات الكثيرة السرية وغير السرية . واستفرغوا فى سبيل غايتهم ، الوسع والطاقة ونالهم ما نالهم من نفى وعذاب فما وهنوا وما استكانوا .

والوحدة العربية الآن ليست بدعة مستحدثة فى هـــذا العصر ، بل هى وليدة لتطورات اجتماعية ، وتيارات سياسية ، وأخرى وطنية ، وهى ثمرة لجهاد طويل قامت به أمم العرب . وعلى الاخص منذ عصر محمد على باشا ، بعدأن فقدت وحدتها

قرونا ، وتبددت كلمتها أزمانا ، وأحست إحساسا عميقا بألم الوحشة والعزلة ،وألم التفرق والتحزب ، وشعرت بالحاجة اللاحة الى التضافر والتناصر . عندئذ فقط وجهت جهودها إلى الانضمام ، لتجتمع صفوفها متراصة متماسكة كالبنيان . فقامت سوريا ولبنان ومصر والعراق ، وتونس والجزائر وطرابلس بمشروعات لها خطرها فى التعاون الثقافى والسياسى والاقتصادى على أيدى رجال العلم والأدب منذ بداية القرن التاسع عشر .

ورجال العلم والأدب فى كل عصر هم الشعراء ، وهم الرسل للنهضات القومية وهم الألسنة الناطقة بحياة أممهم وميولها ، واتجاهاتها . وهم الاطباء إن عز الدواء .

وكانت سوريا أسبق الأقطار الشقيقة الى ميدان الوحدة ، فمهدت لها بالنزول أولا فى ميدان النضال العلمى والأدبى ثم السياسى والاقتصادى . للخروج من فترة الخمود والهمود، لأنها رأت أن الوحدة العربية لا يمكن أن تتحقق دفعة واحدة انما تتحقق تدريجا وعلى مر الزمن : شأن كل المشروعات العظيمة تبدأ صغيرة ثم تنمو اذا توافرت لها عوامل النمو والبقاء بمرور السنين الطوال . أو تموت اذا لم تقدر لها إلا عوامل الذبول والفناء .وكيف مهدت سوريا السبيل الى هذه الوحدة ؟ سارعت الى الاخذ من أمم الغرب ما وجدته موافقا لرقيها فى الادب والعلم والثقافة . ووضعت بذور التعاون المعنوى والحسى . فتآزرت مع مصر ولبنان والعراق فى سبيل هذه النهضة .

وكانت مصر أسبق الأقطار الشقيقة فى الاستقلال الادارى والحرية الذاتية . فى عهد المغفور له محمد على باشا الكبير . فتوجهت اليها الأنظار وود كل قطر عربى لو ينال استقلاله الذاتى كما نالته مصر . وبدأت الروح الديمقراطية تنتشر فى الأقطار العربية ، فاستعان محمد على باشا بالكتاب السوريين ، ليشتغلوا فى الدواوين المصرية ولينهضوا بها من أمثال المعلم غالى ، وحنا الطويل ، ورزق الله الصباغ .

كما استعان بالمترجمين من سوريا ولبنان ومن أشهرهم أحمد فارس الشدياق . وهو لبنانى الأصل . انتقل الى بيروت سنة ١٨٠٩ ودرس مبادىء العلوم اللسانية . ثم قصد القطر المصرى وجعل يكتب فى الوقائع المصرية الى سنة ١٨٣٤ ثم جال فى أنحاء أوربا . فكان سفيرا للعرب فى فرنسا وانجلترا ، ثم توجه الى تونس وحرر

فيها جريدة « الرائد التونسى » ثم سافر الى الاستانة وأظهر جريدة الجوائب سنة ١٨٦٠ وظلت نحو ثلاث وعشرين سنة . ثم أبطلت . إلى أن توفى فى سنة ١٨٨٧

إزالة الفوارق

ولما كانت هناك فوارق جغرافية وسياسية وطبيعية ودينية بين الأقطار العربية الشقيقة ، وكان من شأن هذه الفواصل أن تقف عقبة فى سبيل الوحدة ، وأن تعوق سيرها ، أو تبعد الهدف عن مرمى الأبصار ـ رأى أدباء الشام ومصر أن من واجبهم أن يعملوا هم أنفسهم على إزالة هذه الفوارق بقدر ما يستطيعون ، بايجاد الصلات وتعزيز الروابط ، وتحديد الأهداف . وعملوا على ما فيه مصلحة الأقطار العربية

فماذا عملوا ؟ وضعوا أسس الصداقة والتحالف ، ودساتير المحبة والتآلف .

وقام شعراء مصر يتمدحون بسوريا ولبنان ، ويشيدون بذكر العرب وفضلهم .

وقام شعراء الشام يشيدون بمجد العرب ، ويثيرون فى نفوسهم النعرة العربية والقومية العربية،ليستعيدوا حياتهم القوية .

فكان فى مصر من هؤلاء الشعراء ابراهيم بك مرزوق المصرى الذى ولد بمصر سنة ١٨١٧ وتوفى بالخرطوم فى بداية عصر إسماعيل . وله ديوان اسمه «الدر البهى المنسوق بديوان الأديب ابراهيم بك مرزوق »

ومن بينهم الشيخ محمد عاقل المصرى وهو الذى قال مدحا فى بيروت وأدبائها لإيجاد التعارف بين القطرين :

قال :

لقد قصدوا بيروت دار أعزة ... لهم تنتمى الآلاء فى اللفظ والمعنى
نزيلهم قد شك فى أصل داره ... وصار يقين الأمر فى علمه ظنا
مدينة ظرف مابها غير فاضل ... بسيم وسيم قد حوى الحسن والحسنى
تشد له الألباب كل مطية ... بجربة الإسعاف فى كل ما عنا
وما منهم إلا وقد شب طوقه ... بنادى « نصيف اليازجى » وقد أقنى

مجيد المعانى وهو للقول حجة لأهل النهى ـ كم قد أجاد لنا فنا

* * *

ومن شعراء الشام الذين عملوا على خدمة القضية العربية الشيخ ابراهيم اليازجى وقد ولد فى بيروت سنة ١٨٤٧ وانتقل إلى مصر، وأبرز فيها مجلة البيان. وأهاب بالعرب أن يتعاونوا وأن يحرصوا على عروبتهم:

قال فى سنة ١٨٦٨:

سلام أيها العرب الكرام وجاد ربوع قطركم الغمام
لقد ذكر الزمان لكم عهودا مضت قدما فلم يضع الذمام

إلى أن قال:

وما العرب الكرام سوى نصال لها فى أجفن العليا مقام
لعمرك نحن مصدر كل فضل ومن آثارنا أخذ الأنام
ونحن أولو المآثر من قديم وإن جحدت مآثرنا اللئام
فقد علم العراق لنا قديما أيادى ليس تنكرها الشآم
وفى أرض الحجاز لنا فيوض يسيل لها إلى اليمن انسجام
وفوق الأندلس لنا بنود لهامات النجوم بها اعتمام
وسل فى الغرب عن آثار فخر لها فى جبهة الزمن ارتسام
ولسنا القانعين بذكر هذا وليس لنا بعروته اعتصام
ولكنا سنجهد فى المعالى إلى أن يستقيم لنا قوام

ففى هذه القصيدة اعتزاز بالقومية العربية، وبالتراث العربى القديم، واستحثاث للعرب أن ينهضوا متعاونين.

* * *

وأراد أدباء الشام أن يتخذوا خطوة أخرى فى تقريب الأقطار الشقيقة من الناحية السياسية فمدحوا ولاة مصر. وتوددوا اليهم، وتقربوا منهم، فنالوا حظوة لديهم.

ومن هؤلاء : جرجس اسحاق طراد من أسرة وجيهة فى بيروت ولد سنة ١٨٥٤ وتوفى سنة ١٨٧٧ .قال يمدح مصر والخديو اسماعيل باشا :

على اسماعيل سيدنا سلام   تردده الأكابر والصغار
إذا ماغاب غاب العز معه   كما إن عاد عاد لنا الفخار
لعزته تخر الأسد طوعا   كالموت - وللموت اضطرار
فما الاسكندرية فى حماه   سوى روض يجلله اخضرار
ومصر الآن فى الأقطار خود   تميس بحلة لاتستعار

* * *

ولا يفوتنى أن أنوه بفضل الكاتب الشاعر « اسكندر أبكاريوس » فى توثيق الروابط بين مصر وسوريا . فقد اشتغل بالتأليف فى بيروت ثم دخل مصر، ومدح أولى الأمر فيها . ثم توفى فى بيروت سنة ١٨٨٥ وله ترجمة ابراهيم باشا دعاها « المناقب الابراهيمية والمآثر الخديوية وهى مسجعة » .

ومن شعره قوله يهنىء الخديو سعيد باشا لما زار بيروت سنة ١٨٥٩

شرفتنا فتزينت أقطارنا   وزهت معالمها وطاب المورد
وتنورت بيروت حتى أصبحت   من نور مجدك كوكبا يتوقد

* * *

وقال يمدح إبراهيم باشا ويذكر ماله من فضل وبسالة :

همام كان فى الدنيا فريداً   وركنا فى المهمات العظام
ولا زالت وقائعه المواضى   مخلدة على طول الدوام
وقائع لو رآها الطفل يوما   لشاب لهولها قبل الفطام

* * *

وقال فى محمد توفيق باشا إذكان ولى العهد :

يا من به آمالنا تتعلق   ونفوسنا للقائه تتشوق

فيك الفضائل واللطائف والتقى والمكرمات وكل حسن يرمق
لم تجتمع فيك المحاسن إنما هنك المحاسن كلها تتفرق
تاهت بكم مصر السعيدة عزة وغدا جبين العصر فيكم يشرق
لازلت للقصاد أحسن كعبة وطريق رزق بابه لا يغلق

* * *

ومن شعراء الشام الذين عملوا على توثيق الروابط بين الأقطار العربية إلياس صالح وقد ولد فى اللاذقية سنة ١٨٣٩ ثم سافر الى مصر وقد مدح الخديو إسماعيل سنة ١٨٧٥ بقصيدة نقتبس منها الأبيات الآتية :

البشر فى قطر مصر فاح عاطره واليمن قد نورت فيه أزاهره
رب المكارم إسماعيل من شرفت به المعالى وزانتها مفاخره
هموم كل كئيب فهو فارجها وكسر كل كسير فهو جابره
ركابه السعد بالاقبال يخدمها وجيشه الله أنى سار ناصره

الوحدة الثقافية

إن الوحدة الثقافية أسبق فى التكوين من الوحدة الاقتصادية والوحدة العسكرية السياسية ، لأنها أساس تبنى عليه الارتباطات والاتصالات الاخرى ، ولأنها مقدمة طبيعية توحد بين العقول والآراء والاتجاهات والقلوب توحيدا يكون من أثره التآلف والتحالف فى النواحى السياسية والاقتصادية .

وقد كان للثقافة أنصار عملوا على نشرها بالوسائل المختلفة . ومن بينهم الفيلسوف الخطيب جمال الدين الافغانى زعيم النهضة والحرية، وغارس بزور الوحدة الاسلامية والوحدة العربية معا .

فقد كان الشرق العربى رازحا تحت نير الجمود الفكرى ، والتأخر العلمى ، والاستعباد السياسى ، فجاءت رسالة جمال الدين مبعث يقظة الشرق وأساس حياته . فقد بث فى الأمم الشرقية روحا حية حفزت إرادتها ، وحركت همتها نحو الأهداف

الثقافية والعمرانية والسياسية فى عهد اشتد فيه بلاء الاستعمار ، وظلام التفرق .

جاهد فى سبيل الانسانية متنقلا بين أقطار المشرق وأقطار المغرب منذ سنة ١٨٥٦م الى أن توفى سنة ١٨٩٧ فانتقل فى هذه الفترة الى الهند والحجاز ومصر والاستانة ولندن وباريس وطهران ، لايخاف للمستعمرين بطشا ، ولايرهب للأوروبيين سلطانا .

انتظم فى سلك الجمعية الماسونية لاقامة دعائم الديموقراطية ، وحرك الرأى العام فى الشرق لفهم حقوقه المشروعة ، حتى يقف الشرقيون كافة متحدين جبهة واحدة فى وجه الأجنبى .

وقد استعان فى تكوين وحدة الشرق بالرابطة الدينية أيضا لأن الجامعة الدينية تربط الايرانيين والافغانيين مع سائر الأمم العربية ، وبالجملة قد عمل ـ رحمه الله ـ على الاتحاد الشرقى فى البلاد العربية وغير العربية .

وإذا لم يكن قد تم له تحقيق ماأراد فى أيام حياته فذلك لأن الأجانب كانوا يستغلون نفوذهم فى أطراف البلاد وأحشائها ، ليعرقلوا سير وحدتها ، ويقيموا أنواع العقبات فى وجه نهضتها . ومهما يكن من شىء فقد اتصل بالعقول والقلوب وترك من بعده خلفا يسير على هداه فى سبيل الوحدة الاسلامية والوحدة العربية معا .

عناصر ووسائل الوحدة الثقافية

كانت الصحافة العربية وسيلة لنشر الثقافة وضم الصفوف ، وتقارب وجهات النظر بين الأقطار العربية بعد انتشار الطباعة ، فقد وفد الى مصر فى القرن التاسع عشر جماعة من أدباء سوريا أنشئوا هنا فى بلادنا طائفة من الصحف العربية ، واتخذوها أداة للتعبير عن الحياة فى أقطار العرب كافة ، وللتنويه بالنواحى السياسية بقدر ما سمحت به حرية الرأى فى ذلك الحين . فكانت الصحف التى أسسها السوريون من أكبر عوامل النهضة العربية ، والثقافيه العامة للأقطار الشرقية

وقد اتفقت كلمة العرب على مناهضة الامتيازات الأجنبية منذ عصر اسماعيل باشا وعلى تدخل الأجانب الدخلاء فى شؤونهم ، لتسلم لهم بلادهم ، وليكونوا

سادة فى أقطارهم . فكان الأدباء فى مختلف الأقطار يعالجون هذه الناحية فى الصحف والمجلات بقوة وصرامة غير ناظرين إلى قطر دون قطر . وإنما كانوا يتوجهون بمقالاتهم وخطبهم وكتاباتهم إلى جميع الأقطار العربية : لأن شعورهم واحد فى كره الأجانب ، وفى حب إعلاء كلمة العرب. ومن هؤلاء . أديب اسحاق (ولد سنة ١٨٥٦ فى دمشق) وكان كاتبا وشاعرا وخطيبا . وقد أقام بالديار المصرية , وهاله أن يرى الامتيازات الأجنبية تطغى على حقوق العرب. فكتب فى هذه النواحى قاصدا تنبيه قومه بمصر والشام إلى الحقوق والواجبات ، ومبينا أضرار الامتيازات الأجنبية .

فكتب فى جريدة مصر سنة ١٨٧٨ فى شأن الافرنج وامتيازاتهم بعنوان « أمانى » يقول :

« من رآنا نذكر الافرنج تارة باللوم ، وطورا بالتظلم ، ونطلق اللسان فى بيان سوء معاملتهم لنا ، وأنهم فى بلادهم خراف ترعى الرفق وتألف العدل ، وتتفيأ ظلال الحرية والمساواة . وفى بلادنا أسود تقضم لحم الحيوان ، وتأوى إلى غاب القسوة والزهو والامتياز ، يحسب أننا ممن ينكرون فضلهم ، ويبخسونهم أشياءهم . ولا والله — لسنا من ذلك فى شىء ، فاننا نعترف لهم بالمزية والفضل ، ولا نجحد سبقهم فى مجال العلوم والفنون الخ . غير أن ذلك لا يمنعنا من مقت امتياز الافرنج عنا فى الحقوق المدنية والسياسية ، ولا يرد عنا عن التماس المساواة التى يسكنون اليها ، ويحرصون عليهـا .

إنهم طلبوا الامتياز فى الحقوق ، والعفو عن الواجبات ، فأذعن لهم أولياء أمرنا : رهبة من مناوأتهم ، ورغبة فى موالاتهم . إلى أن قال :

وقد آن — والله — للأمة أن تطالب ، وللدولة أن تجيب ، بل آن للاوربيين أن يكفوا عن الطمع فى الاثرة ، ويعدلوا عن الحرص على الامتياز . فقد أبطلت الحجة التى أثبتوا بها لأنفسهم ذلك الحق . . . الخ .

واستمر المرحوم أديب اسحاق بمجهوده الجبار يكتب، ويخطب فى ذم الافرنج

وتقبيح استعمارهم ، وإيقاظ الشرق للمطالبة بحقوقه . فمما كتبه فى جريدة مصر القاهرة سنة ١٨٨٠ تحت عنوان أوربا والشرق :

« قضى على الشرق أن يهبط بعد الارتفاع ، ويذل بعد الامتناع . ويكون هدفا لسهام المطامع والمطالب ، تعبث به أيدى الأجانب من كل جانب .

فمنهم من يغير عليه بحجة الغيرة على الانسانية ، ومنهم من يتداخل فيه بدعوى إقامة المدنية ، ولم نر منهم من هو صادق فى دعواه ، بل كلهم تابع فى ذلك قصده وهواه . . الخ »

* * *

وكان يدعو دائما إلى وحدة العرب ، ليستطيعوا الحد من عبث الدول الاوربية وذلك إذا ماتعاونوا وتراحموا ، واتحدوا جبهة واحدة فى وجه الأجنبى الأشعبى .

فمن ذلك أنه قد بعث برسالة على لسان جمعية مصر الفتاة إلى الأمير عبد القادر الجزائرى سنة ١٨٧٩ . (وكان عبد القادر أميرا بالجزائر وحارب الفرنسيين ثم هزم واضطر إلى الهجرة لبلاد الشام وظل بها يعمل على توحيد القلوب ، وإزالة أسباب الخلاف إلى أن مات هناك .)

وجاء فى هذه الرسالة مايأتى :

كتابنا أيد الله الأمير الأعز ، ونحن عصبة تذكر : ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويأمر بالمعروف ، وينه عن المنكر :

رأينا ماألم بهذه الأقطار من الأضرار ، ناشئة عن تخالف القلوب ، وتنافر الأفكار حتى صار الود مداجاة والحب عدوانا . فقلنا ياقوم : لاتنافسوا ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا .

ورأينا بوادر البلاء ، وطلائع الشقاء ، نخفنا المصاب الأعظم ينقلب به الخير إلى الضير ، والمغنم الى المغرم . ويزول بهاء الامة ، ثم تغضب الأرض التى سقاها السلف الكرام بالدم ، فنهضنا نروم حفظ الباقيات الصالحات بوسائل السلم . والسلم أسلم .

ورأينا فقيرنا يتعثر بأذيال فاقته، وعظيمنا لا يأمن على راحته أو على مافى راحته. ومثل ذلك سائر إخوان الوطن الذى ولدنا فيه أو نزلنا بساحته.

فنزعت أنفسنا إلى إعانتهم — ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته.

ورأينا أنوار فضل الامير توقظ الراقد، وتنبه الغافل من هاته الأمة فتكشف عنها كل ملمة. فعلمنا أن لابد من التماس مساعدته فى هذه المهمة، فرفعنا إليه الصحيفة التى هى لسان حالنا، لتنوب لديه عن لسان مقالنا، أمل الحصول على القبول : شأن الأمير فى معاملة من أمه ورجاه الخ.

* * *

الجمعيات والمؤتمرات

فى القرن التاسع عشر

كما أن الوحدة العربية فى الوقت الحاضر تتطلب اجتماع الصفوة من رجال العرب العبقريين فى الاقطار الشقيقة، ليتبادلوا الآراء ويمحصوها، وليجعلوا أمرهم شورى بينهم، وليصلوا إلى نتائج لها أثرها فى تحرير الاقطار العربية من سلطان الدول الغربية — كذلك يبين لنا التاريخ أن مثل هذا قد ظهر بقوة وحماس فى القرن التاسع عشر.

وأول من دعا إلى ذلك الخديو اسماعيل باشا، فأنشئت فى عهده الجمعيات المختلفة. مثل الجمعية العلمية الشرقية، وأعضاؤها مختارون من مختلف الأقطار العربية. فكانت هذه الجمعية باعثة على ظهور الجمعيات الاخرى المتعددة التى عملت لانهاض العرب ثقافيا وسياسيا.

صار فى كل قطر جمعيات تعمل من أجل النهضة القومية تمهيداً للنهضة العربية العامة. فقد عمل كل قطر عربى على تكوين نفسه تكوينا قويا ذاتيا، ثم على الانضمام إلى سائر الأقطار العربية التى ينضوى تحت لوائها العام.

وترتب على هذا : انتشار الحرية الشخصية. وتأييد حقوق الأفراد، والنزعة

إلى التضامن والتعاون ، ومحاكاة الأمم الحرة المتمدينة فى ثقافاتها ، ومناوأة الأجانب ، والوقوف فى سبيل جشعهم واستعمارهم .

وأنقل هنا جانبا من مناظرة دارت فى إحدى هذه الجمعيات وهى جمعية زهرة الآداب التى تأسست فى بيروت سنة ١٨٧٣ بترخيص من الحكومة العثمانية . ومن هذه المناظرة بل ومن عنوانها تستنبطون مقدار ما كان يشعر به العرب إزاء الاجانب المستعمرين . تناولت المناظرة « نابليون الأول » فى موضوع :

« هل كان خيره أكثر من شره ؟

فقال أحد المناظرين وهو المرحوم أديب بك إسحاق فى هذا الموضوع ما يأتى :

لقد سبق لسانى الخاطر ، وخاطرى الفكر فى الرضا بهاته المباحثة : تذكرنى بالرجل الذى ما رأيت فيه كبيراً غير ذنبه ، ولا عظيما غير استبداده ، ولا مميزاً غير شره وقسوته . .

أى احترام أعظم مما سأبسط ، وأى ارتكاب أفظع مما سأروى ، وأى افتئات أضر مما سأبين فى أعمال الآفة الحاصدة للأرواح والبلية النازلة بالابدان ، والصاعقة المنقضة على عموم الانسان . وصفت نابليون الاول . وهذا الوصف لا يصل إلى معناه .

ولست فى موقف الخطيب لأمثل سيئات هذا الرجل ، ومنكرات أعماله ، ولست فى مقام المؤرخ لأجىء بتفصيل أحواله ، ومحصل أقواله . وإنما أنا مناظر فى موضوعه ـ التزمت أن أنفى عنه مالم يكن فيه ألبتة من الخير ، وأن أثبت له ما كان راسخا فيه من الشر ، وما التزمت إلا بيان البين ، وتحصيل الحاصل .

فقد كان ممتنعا على فطرة هذا الرجل أن يصدر منه شىء من الخير بالارادة والاختيار . فان نتج من أفعاله شىء مفيد ، فوجه النفع فيه غير مقصود . وإنما حصل عنه كما ينفع القاتل ورثة المقتول ، والكاسر معمل الزجاج ، والهادم عطل

الفعلة : لايقصدون النفع فيما يعملون ، وإنما ينشأ ذلك عن طبيعة تلك الأعمال وقد يكون فى بعض الشر خير من بعض الوجوه .

وانى ناظر فيه من ثلاثة وجوه: الأول حالته الادارية ، الثانى حالته السياسية ، والثالث حالته الذاتية الخصوصية . مبينا ما ألحق بالناس عموما ، وبالبلاد التى وليها خصوصا من جسيم الأضرار فى كل حالة من تلك الحالات ، معينا فى الاخيرة ما كان عليه من فساد الخلق ، وسفالة الفطرة ، وخسة النفس ، ليعلم أنه لا يعقل صدور شىء من الخير المقصود ممن تجمعت فيه تلك النقائص :

لا ترتج الاصلاح من فاسد فالشهد لا يجنى من الحنظل

* * *

الشبه بين الماضى والحاضر

إننا نعرف أن من مبادىء الوحدة العربية فى هذه الايام نشر الثقافة العربية وتوحيدها وتعميمها فى الأقطار الشقيقة بقدر ما تيسر ، لتتربى فى هذه الأقطار ناشئة تتقارب فى ثقافتها ، فتهدف إلى غاية واحدة وتسعى لها سعيها بآمال متقاربة .

وقد عثرنا على بذور هذه الدعوة فى أواخر القرن التاسع عشر إذ أثار بعض الأدباء موضوعات تتصل بحق التعلم ووجوبه على الآباء لولدهم من الذكور والاناث من السادسة الى الثالثة عشرة من سنهم ، بالمدارس الابتدائية والانتصافية سواء أكانت هذه المدارس أميرية عمومية أم حرة خصوصية .

وقد كان القائمون بالدعوة للتعلم الالزامى وتعميمه جماعة من أدباء سوريا وعلمائها ويقصدون أن يتحقق آمالهم فى توحيد الثقافة ونشر الحقوق وقيام كل أمة بواجبها ازاء الافراد ، وقيام الافراد بواجبهم نحو أمتهم فلم تكن دعوتهم مقصورة على مصر وحدها ، بل شملت معها البلاد العربية الأخرى الى تريد أن تنهض . وكانوا أحرص

الناس على الوحدة، لأن الشام وطنهم كانت ترزح تحت سلطان العثمانيين المستبدين. ووجدوا فى مصر مركزاً للقوة لأنها كانت مستقلة.

وقد قامت مشكلة المجانية فى التعليم عام ١٨٨١ فقام بعض الكتاب يؤيدون الرأى القائل بالمجانية المطلقة لأبناء الفقراء وأبناء الأغنياء على السواء وذلك بسبب انتشار روح الحرية، والعمل على محو الجهل والأمية.

وقام فريق آخر يقرر أن المجانية يجب أن تكون مقيدة بالعجز والفقر، لا مطلقة حتى يؤخذ المال من الأغنياء لهؤلاء العجزة الفقراء.

وقامت جريدة البشير بمصر تعارض فى أمر الالزام، وأمر المجانية وقالت: إن التعليم من وجه الالزام ظلم وكفر وفحش وجهالة، لا يحق للهيئة الحاكمة ولا يجب على الأمة، ولا فائدة فيه لأحد من الناس بل هو البلاء العميم، لأن فيه إكراها يذهب بحرية الآباء، وينقص من عدد العارفين، ويزيد فى عدد الجهلاء.

ثم اعترضت هذه الصحيفة على مجانية التعليم. وانحصر اعتراضها فى أربعة أمور:

أولا: إن المجانية المطلقة موجبة لمزيد النفقة، فهى ضريبة فادحة تزيد تكاليف الأمة أثقالا.

ثانياً: إن المجانية بدعة مستحدثة لم تفد خيراً. ولم يأخذ بها إلا القليل من الدول.

ثالثاً: إن المجانية من آثار الاباحية، لأنها تتعلق بالاشتراك فى أموال الدولة.

رابعاً: إن المجانية إنما وضعت فى الأصل من أجل الفقير فقط ومن أجل إعانته على التعليم. فاذا أطلقت من القيود صارت لإعانة الغنى. وفى هذا حيف على الفقير لأنه لم يأخذ حقه من الغنى.

وما أشبه الليلة بالبارحة نجد مثل هذا البحث قائما فى الزمن الحاضر، زمن الحرية والديمقراطية والانسانية. وله مؤيدون، وله معارضون.

والسبب فى طلب نشر التعليم وتعميمه أن يعرف كل مواطن حقوقه وواجباته

نحو نفسه ونحو غيره فيعمل لمصلحة وطنه واستقلاله ، والبعد عن سيطرة الأجنبي
وبالجملة فقد ظلت الروح التعاونية تنتقل من السلف إلى الخلف وتساعد على نماء الوحدة العربية . وإدخالها فى طور الفعل . وقام بعض الكتاب فى هذا العصر يجهرون بالدعوة إلى الوحدة من أمثال الأمير شكيب أرسلان فى محاضرته التى ألقاها سنة ١٩٣٧ .

كما أن بعض الشعراء من سوريا ولبنان قد تمدحوا بالأقطار العربية ، ودعوا إلى التناصر ، وساعدهم الكتاب والأدباء ومحررو الصحف والمجلات على هذا العمل الجليل ، وشد أزرهم أولو الأمر . كما كانت الحال فى القرن التاسع عشر .

وأذكر منهم على سبيل المثال شاعر العراق السيد معروف الرصافى . فقد دعا سوريا الى الوحدة العربية بقصيدة نقتبس منها الأبيات الآتية :

أما آن أن تنسى حقود وأضغان ... فيبنى على أس المؤاخاة بنيان
أما آن أن يرمى التخاذل جانباً ... فتكسب عزاً بالتناصر أوطان
علام التعادى لاختلاف ديانة ... وان التعادى فى الديانة عدوان
وما ضر لو كان التعاون ديننا ... فتعمر بلدان وتأمن قطان
إذا جمعتنا وحدة وطنية ... فماذا علينا أن تعدد أديان

وأذكر على سبيل المثال أيضا الشاعر إيليا أبو ماضى شاعر لبنان وقد وفد الى مصر أيام المرحوم شوقى ثم غادرها الى المهجر بأمريكا يقول فى الحنين الى الوطن: مصر ولبنان معاً :

وطنان أشوق ما أكون اليهما ... مصر التى أحببتها وبلادى
ومواطن الأرواح يعظم شأنها ... فى النفس فوق مواطن الأجساد
حرصى على حب الكنانة دونه ... حرص السجين على بقايا الزاد
بلد الجمال خفيه وجليه ... والفن من مستطرف وتلاد
تحنو على الغرباء حتى انهم ... لا يشعرون بفرقة وبعاد
عرضت مواكبها الشعوب فلم أجد ... الا بمصر نضارة الآباد

وبعد : أو ليست الأهداف التى ترمى إليها العرب فى غرب آسيا وشمالى أفريقية فى العصر الحاضر هى بعينها الأهداف التى رمى اليها العرب منذ بداية القرن التاسع عشر :

فظهرت الثمرة ونضجت وسميت باسم الجامعة العربية فى القرن العشرين فبارك الله فيها . والسلام عليكم .

محمد أبو بكر ابراهيم

المفتش العام بوزارة المعارف

قصـــــــــة

عضو بعثة

للدكتور ابراهيم أنيس

وجد « خليل » نفسه وحيداً فى فندقه الصغير وقد بدأ اليأس يتسرب إلى نفسه لأنه قضى شهراً كاملا يبحث عن أسرة يسكن معها .

حين كان « خليل » يعد نفسه للرحيل إلى انجلترا لم يترك أحداً من أصدقائه أو معارفه ممن كانوا هناك إلا سأله عن خير نصيحة يمكن أن يقدمها إليه . وقد أجمع الكل على أنه من الخير لكل مصرى يرحل إلى انجلترا أن يقيم مع أسرة ولكنهم اختلفوا فى أسباب نصيحتهم هذه . فمنهم من قال إن خير وسيلة لاتقان اللغة الانجليزية هى السكنى مع أسرة . واخر بدأ يحدث « قليلا » عن أن المرء فى غربته بحاجة إلى الحنان والعطف ممن حوله ولن يجد هذا إلا فى الأسرة . . وثالث أكد لخليل أن الأسرة تعين على الاتصال والاختلاط ومقابلة الفتيات الحسان .

وقد دهش « خليل » لأنه راهم جميعاً ينصحون بأمر واحد ويختلفون فى علة هذه النصيحة .

ولسنا ندرى أى هذه الأسباب صادف هوى فى نفس « خليل » ولكننا نعلم أنه منذ وصوله أخذ يجد البحث عن أسرة . ثم أعياه السؤال عما ينشده وكاد ييأس لولا أن رأى بريقا من الأمل فيما أخبرته خادم الفندق حين أسر اليها برغبته هذه فقد نصحته بنشر إعلان فى أحد للصحف المحلية . ثم نشر الاعلان وكانت صيغته

« طالب مصرى يعمل فى حقول التجارب الزراعية « بأسلاو » يبحث عن أسرة كريمة يعيش معها على أن يكون الضيف الوحيد »

و « أسلاو » هذه بلدة صغيرة قرب لندن فيه حقول التجارب الزراعية ، لجامعة لندن العظيمة . وقد أرسل «خليل» هناك لأنه كان عضو بعثة وزارة الزراعة المصرية .

وتوقع « خليل » فى اليوم التالى لنشر إعلانه أن تنهال عليه الوسائل ردا على هذا الاعلان . ولكن خاب ظنه حين جاءته رسالة واحدة فى بريد الظهر من مسز « جراهام » .

مسز « جراهام » سيدة مسنة تعيش مع زوجها أحد أصحاب الأعمال فى « اسلاو » منذ أربعين عاما ، وقد رزقت فى كل حياتها الزوجية الطويلة إبنا واحداً شاءت الأقدار أن يرحل عنها إلى بلاد الهند ليعمل فى إحدى الشركات الكبرى هناك حزنت مسز « جراهام » على فراق ولدها الوحيد حزناً عميقاً ولكنها كمعظم أمهات الانجليز لم تشأ أن تقف فى سبيل مستقبله فتركته يرحل على مضض منها ليكون حياته كما يرغب . وقد لبثت تكتب لولدها فى كل اسبوع رسالة تحدثه فيها عما يدور فى محيطها الضيق مما جعل رسائلها اخر الامر تكرر أخباراً متشابهة . وأحس ولدها بنغمة الوحشة التى كانت تحيط بأمه فكتب إليها يرجوها ويلح فى الرجاء أن تبحث كما هى عادة كثير من الانجليزيات ذوات اليسار ـ عن سيدة تعيش معها لا كخادم بل كعضو فى الأسرة تأكل معهم وتجلس معهم وتشاركهم فى القيام بشئون الدار .

وأخيراً أذعنت مسز « جراهام » لنصح ولدها ونشرت إعلاناً أيضاً فى الصحيفة المحلية فى نفس اليوم الذى نشر فيه « خليل » وشاء حسن حظه أن ينشر إعلانه بجوار إعلانها .

وفى المساء جلست مسز « جراهام » بجوار المدفأة وبيدها الصحيفة تقرأ إعلانها فلفت نظرها إعلان « خليل » فقرأته أيضاً .

وهنا مرت لحظات غابت فيها عن صوابها وأخذت تفكر فى حال ولدها ببلاد

الهند . وصور لها خيالها ككل الأمهات صوراً مظلمة عن حياته هناك وتخيلت أنه ربما لا يجد أيضاً أسرة يسكن معها ويطمئن اليها ذرفت عبرات حاره وفجأة قامت تكتب لخليل وتطلب اليه أن يزورها فى وقت حددته له لا لانها صممت على أن تسكنه معها ولكن دفعها حب الاستطلاع أن تسمع منه قصته وما كان من شأنه.

ثم رأت مسز « جراهام » نفسها فى اليوم التالى لاول مرة فى حياتها أمام شاب أجنبى يتحدث اليها بلغة مفهومة وان تخللها كثير من الاخطاء. ورقت هذه السيدة الكريمة لحال « خليل » ووعدته بعد حديث طويل بالتفكير فى الامر

وفى مساء ذلك اليوم دار حوار طويل بين مسز « جراهام » وزوجها هو يحاورها عن طريق العقل وهى تجادله عن طريق القلب وأخيراً قرر أى الزوجين على سكنى « خليل » معهما.

عاش «خليل» مع هذه الاسرة ثلاث سنوات وكان كلما مر به الزمن معهم ازدادوا حبا له وشغفا به وزاد هو أيضاً حباً لهم وشغفاً بهم، ورأى « خليل » فى مسز « جراهام » حنان أمه وعطفها، ورأت هى ايضاً فيه شباب ولدها وفتوته.

وكم جلس «خليل» يحدثها هى وزوجها عن مصر وصفاء سمائها واشراق شمسها وعذوبة ماء نيلها وعما فيها من رخاء وعن عادات قومها واثارها. مما جعلها تتمنى لو عاشت ما بقى لها من العمر فى بلاد « خليل »

وهى أيضا جعلت من نفسها معلمة له تصلح من اخطائه اللغوية وتحدثه عن عادات الانجليز وتاريخهم فجعلته بعد زمن قليل يحس كأنما كانت انجلترا وطنا ثانياً له.

ودهش مستر «جراهام» حين رأى زوجته التى تعودت أن تقضى معظم الايام فى فراشها يعود اليها نشاطها ولا ترى الا باسمة فكأنما قد أعادت حياة «خليل» معهما ما فقدته لفراق ولدها من صحة وقوة. وقد كانت تأبى الا أن ترتب لخليل سريره بيديها وأن تدفئه بقربتين صغيرتين من الماء الساخن.

وتعود أهالى « أسلاو » أن يروا ذلك الشاب الاسمر الطويل القامة المجعد الشعر

ذا الاسنان اللامعه الذى أشرب وجهه بحمرة تنم عن صحة وعافية وهو يمر بهم فى طرقات المدنية مثالا للرجولة والفتوة فكان دائما موضع اعجابهم ولكنهم كانوا لايتحدثون اليه خجلا منهم وحياء فيكتفون بالابتسام. حتى كان يوم أصبح فيه « خليل » حديث الناس فى هذا البلد الصغير يذكرونه وكلهم ثناء عليه واعجاب بشهامته ومروءته وذلك ان المارين فى الشارع الهام بالمدينة شاهدوا فتاة صغيرة تعدو ووراءها سيارة تكاد تصدمها وفقد السائق توازنه فلم يستطع وقف سيارته وصاح الرجال وصرخ النساء وفجأة راى الناس « خليلا » ينطلق انطلاق السهم غير مبال بالاخطار ثم يخطف الفتاة عائدا بها يحملها بين ذراعيه القويتين لم يمسسها ضر او اذى .

ومنذ ذلك الحادث بدأ أهالى « أسلاو » يتحدثون الى « خليل » كلما صادفوه أو يحيونه كلما قابلوه. وذاع ذكره بينهم فلقبوه بالمصرى النبيل . فاذا كانت معه مسز « جراهام » ذات يوم سارت تعتمد على ذراعه وكلها زهو وفخر بضيفها المصرى أو قل بصديق الاسرة الشاب الذى أصبح يحل منها مكان الابن البار

ومضت الايام وأدى «خليل» امتحانه انهائى بنجاح وكان عليه ان يعود الى مصر فعز هذا الخاطر على مسز «جراهام» وكأنما قد افاقت هى وزجها من حلم لذيذ استمر ثلاثة أعوام كانت لما تخللها من سرور وسعادة كثلاثة ايام . واذا بخليل يعد نفسه للرحيل فكانت صدمة أخرى لمسز « جراهام » لايعادلها الا الصدمة الاولى لفراق ولدها ولكن ماحيلتها وقد انقضى الاجل المحدد له فى البعثة وقد ادى المهمة التى ارسل من اجلها

وعلى مضض منهم جميعا قابلوا الحقيقة المرة بهدوء وصمت . وفى ليلة الرحيل دعت مسز «جراهام» الاصدقاء والمحبين فى حفل عائلى صغير لتوديع «خليل»

وكان ان اجتمع المدعوون وبدءوا يتسامرون ويلهون ومسز « جراهام » عن كل هذا لاهية ذاهلة شاردة الفكر تبدا الحديث فى موضوع ولا تكاد تنتهى منه حتى تشرع فى غيره

وطلب الحاضرون منها اخر الامر ان تتكلم فأبت فالحوا فى السؤال فوقفت بين تصفيقهم وتهليلهم وبدات القول والدموع تترقرق فى عينيها فاقلت من الكلام ولكنها احسنت التعبير عن قليل مما تكنه لخليل ثم كان اخر قولها ان قالت « مازلت اترنم بقول شاعرنا « كبلنج » الشرق شرق والغرب غرب ومحال ان يلتقى التوامان حتى قابلت « خليلا » فاصبحت اقول الشرق غرب والغرب شرق وعلى التوامين ان يلتقيا

ابراهيم أنيس
المدرس بدار العلوم

الامير نور الدين (١)

للاستاذ عبد الرزاق حميده

تفاح الملك :

كان لملك من الملوك ثلاثة أولاد . وكان له قصر جميل فخم تتصل به حديقة فيها خير أنواع الفواكه . وكان أعجب مافى الحديقة شجرة تفاح تثمر كل عام ثلاث تفاحات ذهبية ، ولكن الملك لم يذق طعم هذا التفاح أبدا ، لاهو ولا واحد من أولاده ، إذ أن غولا مخيفا كان ياتى إلى هذه الشجرة كلما نضجت تفاحاتها الثلاث فيأكلها .

وتساءل الامراء الثلاثة ذات يوم : كيف لا يستطيعون أن يذوقوا هذا التفاح الذهبى البديع ، فأخبرهم أبوهم أن الغول يأتى الى الشجرة عندما ينضج تفاحها ، فيذهب به فى ثلاث ليال متوالية ، كل تفاحة فى ليلة . فقرروا أن يحرسوا هذه الشجرة ، وأن يمنعوا الغول كى يستطيعوا أن يعرفوا لها طعما ولو مرة ، ورضى أبوهم بما قرروه ، وشجعهم عليه .

---

(١) قصة الامير نور الدين من القصص الخيالية التى تعرف عند الانجليز باسم FAIRY TALES أشخاصها يشبهون بنى آدم فى التركيب . لكنهم أصغر حجما ، ولهم أفعال عجيبة وملابس زاهية جميلة غالبا .

وهذا نوع يشوق الاطفال وقد يستمعون اليه ساعة بعد ساعة فلا يملون سماعه . وله أثر محمود فى تربية الخيال .

حراس التفاح

وفى الليلة الاولى ذهب الامير الاكبر واسمه محمود ، الى الحديقة ليحرس التفاح ويمنع الغول . وبات ساهراً حتى دقت ساعة القصر فى منتصف الليل ، وعندئذ سمع الامير محمود صيحة مزعجة مرعبة ، فطار فؤاده من هولها ، وكاد يموت عند سماعها ، ففر يطلب النجاة ، وذهب الغول بتفاحة من التفاحات الثلاث .

وفى الليلة الثانية ذهب الامير الاوسط واسمه شهاب ، فلم يكن حظه خيرا من أخيه الامير محمود ، بل فقد رشده عند سماع الصيحة التى أرسلها الغول عند منتصف الليل . وفر من الموت الذى تخيله عند سماع الصيحة وذهب الغول بالتفاحة الثانية .

الامير نور الدين يطعن الغول

وفى الليلة الثالثة ، خرج الامير الاصغر — واسمه نور الدين الى الحديقة فى أول الليل وبات ساهرا تحت شجرة التفاح يترقب مجىء الغول . فلما انتصف الليل جاء الغول صائحا بصوت يملأ القلوب رعبا وفزعا ولكن الامير لم يخف ولم يفزع . بل وقف على قدميه بقلب جرىء ونفس هادئة ، ونظر الى الغول . ثم صوب رمحه اليه ورماه به ، فاخترق جلده ، ونفذت الطعنة الى جوفه ، وسقط على الارض مضرجا بدمه . ثم قام مسرعا ، وولى هاربا ، يصيح ويئن أنيناً مخيفا . وعاد الامير الى قصر أبيه مسرورا بما فعل ، راضياً كل الرضا عن نفسه لانه نجح فى منع الغول . ونام فى غرفته حتى مشرق الشمس .

جاءه أخواه محمود وشهاب فى الصباح وسألاه عما فعل ، فأخبرهما أنه ضرب الغول برمحه ضربة كادت تقتله ، واستطاع أن يطرده قبل أن يأخذ التفاحة الثالثة الباقية . فضحكا استهزاء بما قال . فذهب بهما إلى الحديقة ، وساروا جميعا حتى وصلوا إلى شجرة التفاح ، فوجدوا التفاحة الثالثة باقية ، ووجدوا آثار الدم الذى سال من جسم الغول ، وساروا وراء الدم لعلهم يهتدون إلى الكهف الذى يختفى فيه الغول ليقتلوه . فانقطعت آثار الدم عند حافة بئر عميقة مظلمة . ففكروا فى النزول :

قال الأمير الأكبر ، محمود ، لاخويه لابد من النزول فى هذه البئر . وسأنزل أنا للبحث عن الغول . فاربطا حبلا حول وسطى . فاذا ناديت من داخل البئر : البرد البرد ، فاتركا الحبل وإذا ناديت : الحر . الحر ، فاجذبا الحبل وأخرجانى فى الحال . ثم ربط حبلا حول وسطه ونزل فى البئر ، ولكنه لم يكد يصل الى منتصف المسافة بين حافتها وقاعها حتى صاح بأعلى صوته : الحر . الحر . فشد أخواه الحبل وأخرجاه .

وتقدم الأمير الأوسط شهاب ، فربط الحبل حول وسطه ونزل . ولكنه لم يكد يتجاوز منتصف البئر حتى صاح . الحر . الحر . فشده أخواه إلى ظاهر الأرض

فى أرضه القصر المسحور .

أما الأمير الأصغر نور الدين . فقال لأخويه . إذا ناديت قائلا : البرد . البرد فاجذبا الحبل . ثم ربط الحبل وسطه ونزل ثم نزل . واستمر ينزل حتى وصل الى القاع : فحل الحبل ، ونظر حوله فرأى شيئا عجيبا . رأى إقليما ساحر المناظر . مملوءا بالغابات والرياض والجداول . ينيره ضوء زاهر جميل ، فدهش مما رأى . وعجب من جماله عجبا شديدا . وسار فى وديان ذلك الإقليم وهضابه زمنا حتى بلغ قصرا فخما ، ووجده مفتح الأبواب ، فدخله . ومشى فيه متنقلا من حجرة إلى حجرة . وكل حجرة تزيد على التى قبلها فى جمالها وبهاء منظرها وحسن شكلها حتى أتى حجرة وجد فيها ثلاث فتيات لم تقع عينه من قبل على مثلهن فى النضارة والجمال . فلما رأينه عجبن من جراءته وسألته إحداهن :

أيها السيد الشاب . ما الذى جاء بك إلى هنا ! فأجابها .

إنى أبحث عن الغول الذى يعيش حول هـذا المكان ، فأخبرته أنه هو الذى يحبسهن فى ذلك القصر فكيف لا يخافه ويرهب سطوته ! فأجاب الأمير نور الدين أنه لايخاف شيئا وأنه سيلاقى الغول حتما ليقتله ويستريح الناس من شره

عجب الأميرات عندما سمعنه كل العجب وأردن تقديم المعونة له كى يقتل الغول ، فقلن له .

اسمع أيها الفتى الجميل : إن الغول ينام فى الغرفة التي وراء هذه . فاذهب اليه

فاذا وجدت عينيه مغمضتين فاعلم أنه مستيقظ . وأنه سيقضى عليك ، وإذا كانتا مفتوحتين فهو نائم نوما عميقا فاضربه برمحك ضربة واحدة . واعلم أنها تقتله ، واحذر أن تضربه ضربة أخرى فانك إن فعلت عادت اليه الحياة وقتلك

بعد هذا الحديث ذهب الامير نور الدين إلى غرفة الغول فوجده مستلقيا مفتح العينين فعلم أنه نائم ، فضربه برمحه ضربة مميتة . فصاح الغول صيحا مفزعا . وقال له :ارحمنى أيها الفتى واضربنى ضربة أخرى تذهب بما أقاسيه من الألم فأبى الأمير أن يعيدها .ومات الغول

عاد الأمير إلى حجرة الفتيات الجميلات يبشرهن بقتل الغول ونجاتهن من الأسر . ويعرض عليه الزواج منه ومن أخويه الأميرين محمودوشهاب . كل واحد واحدة .. فرضين بخطبته وقدم لهن الخواتم الثلاث . وغادر الجميع القصر إلى قاع البئر التى نزل منها فربط الأمير الحبل حول وسط الأميرة الكبرى ، ونادى بصوت مرتفع . البرد ! فشد أخواه هذه الأميرة إلى ظهر الأرض . ثم صعدت الأميرة الوسطى كما صعدت الكبرى .

عروس الأمير نور الدين

أما الأميرة الثالثة الصغرى . فقد فتنت الأمير وأسرت قلبه ، كما فتنها وشغفها حبا ، فلما جاء دورها قبلها وقال لها : إنك صاعدة إلى ظاهر الأرض . فلا تنسى أنك عروس وفاتنى ، فأجابته : ما أعظم سرورى بذلك ! فانى أحبك حبا قويا ، ولكننى أخشى أن أصعد قبلك فتطمع أخواك ، فماذا أنت صانع إذا بقيت هنا تحت الأرض ؟ وماذا يصير اليه أمرك ؟ خذ هذه البندقات الثلاث فان فى واحدة منها ثوبا بديع الطراز نقشت عليه السموات ونجومها الزهر ، وفى الثانية ثوبا عليه رسم الأرض وأزهارها الناضرة وفى الثالثة ثوبا عليه رسم البحار وما فيها من أسماك مختلفة الأشكال والألوان . فاحفظ هذه البندقات الثلاث فقد تنفعك يوما

لم تكد هذه الأميرة الصغيرة تصعد إلى ظهر الأرض حتى فتن بها الأميران

محمود وشهاب وحسدا أخاهما عليها . وحاول كل منهما أن يأخذها لنفسه : ثم ذهبا بالأميرات الثلاث وتركا أخاهما عند القاع

وقف الامير نور الدين ينادى : البرد. البرد وطال به الوقوف والنداء ثم أدرك أن أخويه قد ذهبا . ولم يبق عند حافة البئر أحد يعينه على الصعود فترك مكانه حزيناً حيران . ومشى فى هذه الاقاليم التى جاء متها لعله يجد مساعداً فرأى بستانياً عجوزاً يعزق حوضاً من أحواض الازهار فحياه وقال له : أيها الانسان الكريم إنى ضللت طريقى فى بلادك وأود أن أصعد إلى ظاهر الارض . فهل عندك حيلة تساعدنى بها على العودة من حيث جئت ؟

فرد البستانى العجوز تحيته بأحسن منها وقال له ، اذهب أيها الامير فى طريقك مخترقا تلك المزارع حتى تصل إلى نهايتها وستجد هناك خروفين . أحدهما أبيض كالثلج ، والآخر أسود كانه قطعة من الليل . فأغمض عينيك واجر وراءهما . فاذا قبضت على الخروف الأبيض فسيذهب بك الى ظهر الأرض وإذا لم يساعدك الحظ وقبضت على الخروف الأسود نزل بك إلى إقليم آخر أبعد عن سطح الأرض من هذا الاقليم .

الى أرض الوحشة والأسر

شكر الامير للبستانى ، واخترق المزارع حتى وجد الخروفين فأغمض عينيه وجرى وراءهما فخانه الحظ وقبض على الخروف الأسود ، فأحس أنه يغوص فى الأرض ، فلما فتح عينيه وجد نفسه واقفا فى واد يانع بجانب عين ماء يسيل ماؤها فيمس قدميه مسا رقيقا . ووجد عندها فتاة تبكى : فسألها ماشأنها وما هى ؟ فأجابته والاسى يملأ نفسها :

أيها الغريب النبيل : يجب أن ترثى لحالى ! ان هذه البلاد قد ابتليت بوحش مخيف ، له سبعة رءوس ، يعيش على لحومنا ودمائنا وهو يحمى هذه العين التى لانجد غيرها نشرب منه . فلا يأذن لنا أن نذوق ماءها إلا اذا قدمنا له كل يوم فتاة منا يأكلها ، وانى القربان الذى يقدم اليه اليوم ما أشد بؤسى وحزنى ! إننى واقفة

هنا أنتظر قدومه . إنه سيأ كانى بعد قليل ، ثم خنقتها العبرات واستولى عليها الذهول ثم ثابت إلى رشدها . فقالت : ان أبى ملك هذه البلاد وليس له غيرى من البنين والبنات ، إنه فى قصره الآن حزين مقطع القلب . انه يظننى الآن فى جوف الوحش

فأجاب الأمير نور الدين : لاتخافى ولا تحزنى أيتها الاميرة إن لى قلبا شجاعا وقد أستطيع أن أنجيكم من هذا الوحش وأريحكم من شره

ولم يكد يتم حديثه إلى الاميرة حتى سمع من وراء الجبل هزيما وعزيفا ورأى الوحش قادما قد رفع رءوسه السبع كى يبتلع الفتاة، فلما بصر بالامير نور الدين واقفا معها تمهل فى مشيته ، فعاجله الامير بضربة قاتلة من رمحه ، أرسلها الى قلبه ، فتحول جسمه سيلا من اللهب ، وصاح صيحة تخلع القلوب ، ثم خر صريعا

أخرج الامير خنجره من قرابه ، وقطع ألسنة الوحش السبعة ، ووضعها فى جيبه لتشهد له على ما فعل اذا دعت الحالة الى هذه الشهادة ، ثم أوى الى شجرة قريبة واستلقى تحتها ثم نام

ولكنه صحا بعد قليل اذ سمع فحيح ثعبان قادم من بعد . جاء يقصد وكر نسر فى أعلى الشجرة ، ويريد ابتلاع مافيه من فراخ النسر فنهض الأمير ، وأرسل الى الثعبان طعنة من رمحه مزقته . كما قضت على الوحش من قبله ، ثم عاد الى نومه

جزاء المعروف

عاد النسر الى أفراخه بعد حين فلما بصر بالامير نائما تحت الشجرة ظن به شراً فحوم فى السماء ثم هوى نحوه يريد أن يمزق أحشائه بمخالبه ومنقاره فصاحت به أفراخه ألا يصيبه بأذى، وأن يتركه نائما مستريحا . فعجب النسر من أفراخه وسألها عن السبب فأخبرته أنها مدينة بحياتها لهذا الشاب : اذ أنه قتل ثعبانا كان يريد أكلها فلما سمع ملك الطيور مقالة أفراخه نشر جناحيه حول الامير نور الدين وأظله حتى استيقظ ثم قال له

أيها الشاب النبيل : لقد نجيت أفراخى
وإنى لا أدرى كيف أشكر لك حسن صنيعك .

فرد الأمير : إنى لا أستحق شكراً كثيراً ياملك الطيور ، وإن أى إنسان يفعل مافعلت فى مثل هذا الموقف .

فأجابه النسر : إنك بطل ياسيدى وإنك طيب القلب . فتكلم ، وأخبرنى كيف أجزى معروفك .

فقال الأمير : إذا لم يكن بد من أن تجزينى فتفضل واحملنى على ظهرك إلى بلادى فوق سطح الأرض .

فأطرق ملك الطيور ثم رفع رأسه قائلا :

آسف أشد الأسف . وأود لو أستطيع ! انها رحلة طويلة جدا . فاذا حاولتها مت جوعا وعطشا قبل أن أصل .

فسأله الأمير : أتستطيع أن نرحل الرحلة اذا تزودنا للطريق بالماء والطعام ؟

فأجابه النسر : نعم نستطيع ، ولكنى احتاج الى أربعين خروفا وأربعين زجاجة مملوءة ماء . فأين تجد كل هذا ؟ لا يستطيع أحد أن يمدك بما نطلب الا الملك

فكر الأمير أن له يدا عند الملك . فقد نجى ابنته الوحيدة من الوحش ، ولن يبخل عليه الملك بأى شىء يريده من أجل ذلك فطلب من النسر أن ينتظر بعد أن أخبره بقصته فوعده النسر أن ينتظره حتى يعود .

ذهب الامير نور الدين الى حاضرة الملك وسأل عن القصر فأرشده الناس اليه وكانت المدينة فرحة أشد الفرح . وقد شاع فى كل أرجائها السرور لأن بطلا شابا قتل الوحش وأراح البلاد من شره ، وأنجى ابنة الملك من موت فظيع . ونادى المنادون فى المدينة أن الملك سيجزى منقذ ابنته خير الجزاء إذا تقدم اليه واجتمع عند القصر بعض الفرسان يدعى كل منهم زورا . أنه هو قاتل الوحش ومنقذ الأميرة ، ووقف قوم آخرون من الذين يحرقون الأشجار فى الغابة لتصير فحما ، وأدعوا كذلك أنهم هم الذين قتلوا الوحش وأنقذوا الأميرة . وحملوا معهم رءوس الوحش السبعة يؤيدون بها دعواهم . فأنكر الفرسان عليهم هذا الادعاء وطلبوا المكافأة لأنفسهم غير أن الأميرة كذبت دعواهم جميعا . وأخبرت أباها أن الذى قتل الوحش ونجاها بطل شاب حسن الهيئة غريب عن البلاد

ولم تكد تتم قولها حتى دخل الامير نور الدين منقذها من الوحش ؛ ومريح البلاد من خطره فلما وقف بين يدى الملك أخبره أنه هو الذى قتل الوحش المخيف وأراح البلاد من الضريبة القاسية التى كانت تقدم له من دماء الفتيات ولحومهن. وأخرج من جيبه السنة الوحش السبعة دليلا على مايقول.

وطارت الأميرة الى نور الدين فعانقته وقبلته وأيدت دعواه عند أبيها وأخبرته أنه هو الذى قتل الوحش وأنجاها، وأن غيره من المدعين يكذب فيما يدعيه. وأخرجهم الأمير من القصر واستبقى نور الدين وحده. وعانقه عناق المحبة والاعتراف بالجميل. وسأله أن يطلب مايشاء من كنوز الملك. أو يأخذ نصف المملكة أو يتزوج الأميرة ويرث العرش بعد الملك

أجاب الأمير نور الدين : إننى من أبناء الملوك ياصاحب الجلالة. ولكن ملك أبى بعيد بعد المشرقين وإنى أود العودة إلى بلادى فتقبل شكرى على سخائك وكرمك فى الجزاء. ولا أطمع فى شىء أكثر من أربعين خروفا. وأربعين زجاجة ماء فأمر الملك أن يجهز بما طلب حالا.

عاد الأمير إلى النسر بالضأن والماء فلما رآه النسر قال له إنه سيحتاج إلى الطعام والشراب فى الطريق. فاذا صاح « كرك » قدم له الأمير لحما. وإذا صاح « كراك » قدم له شرابا. فاذا لم يسعفه بالطعام أو الماء حسب طلبه هوى به مسرعا إلى المكان الذى ابتدأت منه الرحله. حتى ولو لم يكن بينه وبين ظهر الارض إلا قليل ثم دعاه أن يستعد.

على جناح النسر

وضع الأمير الزاد والشراب على ظهر النسر وطوق رقبته برجليه وذراعيه. وطار به النسر صاعدا فى أجواز الفضاء مخترقا كثيرا من مختلف الأجواء. وظل صاعدا، صاعدا، صاعدا، وكلما جاع صاح : « كرك » فيطعمه الأمير، وكلما عطش صاح : « كراك » فيسقيه. وصعد ثم صعد، حتى اذا لم يبق من المسافة الا قيل نفد الطعام وصاح النسر كرك، كرك. كرك. والأمير لايجد مايقدم فأخذ خنجره من

قرابه . وقطع به قطعة من لحم ساقه ، وقدمها اليه ، فما كاد النسر يذوقها حتى أدرك أنها لحم انسان فحفظها تحت لسانه ، وصعد به حتى بلغا سطح الأرض

نزل الامير وحاول أن يتحرك فلم يقدر وتألم ألما شديدا ، فسأله النسر ما به ، فأخبره أنه لما نفد الطعام من لحم الضأن فى الطريق قطع جزءا من لحم ساقه وقدمه اليه ، وأنه عاجز الآن عن المشى لما فقده من لحم الساق .

فقال النسر : لقد أدركت ذلك ، وحفظت هذه القطعة فلم أمضغها ، وهاهى ذه تحت لساني . ثم أخرجها من فمه ووضعها فى مكانها من ساق الامير فعادت سليمة صحيحة قوية واستأذنه النسر ليعود الى بلاده فأذن له ، وطار .

الامير نور الدين صانع الأثواب

لم يعد الامير الى قصره بل فكر فى عمل يكسب منه قوته ولو الى حين ، ورأى أن يذهب الى الخياط الخاص بالقصر يعمل عنده . ثم سار الى المدينة فلما دخلها ذهب الى دكان الخياط متنكراً ، وحياه ، وقال له : ان صناعتى الخياطة ، وأود أن أجد لى عملا فى دكانك . فقال له الخياط : يمكن أن تشتغل عندى صبياً ، وتبدأ عملك الآن اذا شئت . فبدأ عمله فى الحال وأخذ يجتهد فى عمله حتى أتقن صناعته اتقانا كبيرا .

عروس الامير تهتدى اليه

هذا ما كان من أمر الامير الصغير نور الدين منذ أن نزل البئر حتى عاد الى وجه الأرض محمولا على ظهر النسر . أما أخواه الأمير محمود والأمير شهاب فقد استمرا يتنازعان من أجل الأميرة الصغرى من الأميرات الثلاث اللاتى نجاهن الأمير نور الدين من قصر الغول . وعلم الملك بأمر النزاع بينهما من أجلها ، فرأى أن يزوجها من الأمير الأكبر محمود . ولكنه رأى أن يعلم رغبتها قبل زواجها ، فأرسل اليها وسألها فقالت إنها لاترغب فى الزواج إلا من أمير يقدم لها ثلاثة أثواب عجيبة ، على واحد منها رسم السماء بنجومها ، وعلى الثانى رسم بمثل الأرض

وأزهارها وأشجارها . وعلى الثالث رسم يمثل البحار بأسماكها وحيوانها . .

مكث الملك ساعة لايتكلم عندما سمع هذا المطلب ، ثم وعد الأميرة أن يقدم لها هذه الأثواب الثلاثة العجيبة ، ودعا اليه الخياط الملكى ، وأمره أن يصنع هذه الأثواب كما وصفت الأميرة الصغرى .

فزع الخياط عند سماع هذا الطلب وسأل نفسه كيف يستطيع صنع هذه الأثواب وفكر فى ذلك طول يومه ، وحلم به طول ليله ومرت به الساعات والايام مسرعة ، وهو لايدرى كيف يخيط هذه الثياب . وبدا له الأمر مستحيلا وظن الملك إنما أمره بهذا ، وهو يعلم استحالته ليطرده من خدمته ومن عطفه .

أبصر الصبي على وجه معلمه مظاهر الحيرة والحزن . وسأله عما يحزنه ويحيره . فأخبره بما أراد الملك ، وبعجزه هو عن صنع هذه الاثواب وضحك الصبى عندما سمع الخبر ثم قال لمعلمه :

أهذا هو كل مايريد الملك ؟ إنه لعب أطفال . فقال له :

ماذا أصابك أيها الشاب .أطار عقلك فجننت؟

فرد الصبى :

لاشىء من هذا . وأولى بك أن تترك هذا الامر ، وتكل الى صنع هذه الاثواب .

فتيقظ معلمه وأجابه :

أتعنى بهذا الكلام — وأنت لاتزيد على أن تكون صبيا من صبيانى — انك أحسن منى ؟ اننى معلمك . والخياط الخاص لثياب جلالة الملك ، وأمهر الناس فى عملى .

فرد الصبى :

لا أعنى الا أننى أستطيع صنع هذه الاثواب الثلاثة . التى أمر بها الملك .

فرد معلمه ساخراً

ومتى ؟ بعد عشرين سنة على الاقل ، كما أتوهم .

فقال صبيه : لاعشرين سنة ولا سنة واحدة ، ولكن الليلة وعند الصباح تجدها معدة كاملة

فسأله معلمه ، وقد بدأ يثق بما يقول ويظنه جادا فيه : وان كان الشك مازال قوياً فى قدرته على العمل .

وأين تجد النسيج ؟

فأجابه الصبى بأنه لايحتاج الى نسيج ولا خيط ولا أبرة ، وانما يريد زجاجة من شراب وطبقا مملوءا بالبندق ، وأن يغلق عليه باب غرفته حتى الصباح ، وعندئذ يجىء معلمه الخياط ، ويتسلم الاثواب كما يريد الملك أن تكون

عاد الشك قويا جدا عند الخياط وغاظه أن يجرؤ صبيه على شىء يعجز عنه هو وقال لنفسه ، ان هذا الصبى جاهل قدر نفسه ، وهو يدعى مالا يستطيع ولا بد من كشف عجزه ، وإعطائه ما يطلبه وانتظار النتيجة فى الصباح

جاء المعلم الخياط لصبيه — وهو الامير نور الدين كما تقدم — بكل ما طلب منه ، وأغلق عليه باب عرفته ، وسهر الامير حتى أكل البندق وأتى على ما فى الزجاجة من شراب ، ولم يشغل نفسه أبدا بالاثواب الثلاثة . وعندما أضاء النهار طرق المعلم باب الغرفة يسأل صبيه — وهو الامير نور الدين — ماصنع فى الأثواب فطلب منه أن يعود عند اشراق الشمس كما وعده ، فلما انصرف من عند باب حجرته كسر البندقات الثلاث التى أعطته اياها الاميرة الصغرى يوم أن قتل الغول ونجاها هى وأختها من شره وأخرج الأثواب المطلوبة كل ثوب من بندقة ورآها واستيقن أنها ما يطلبه الملك

عاد المعلم عند الاشراق ففتح له صبيه الباب ، وأراه الاثواب : واحد منها يمثل السماء بنجومها الزهر ، والثانى يمثل الارض وما فيها من زهر ، والثالث يمثل البحر وما فيه من حيوان .. فلما رآها أخذته غاشية من الذهول والحيرة والسرور والفرح. وعجب من جمال الاثواب ودقة صنعها ، وبهاء منظرها وظن نفسه فى حلم ، أو أن صبيه من الجن الذين سمع بهم فى القصص . ولمس الاثواب مرة بعد مرة ، فلما استيقن انها حقيقية طار بها الى القصر ، وقدمها الى الملك .

أخذ الملك الاثواب الى الاميرة فسألت عن صانعها الحاذق المقتدر فأخبرها المعلم الخياط أنه لم يكن يستطيع الوفاء بما طلب منه الملك لولا صبيه الذى صنعها فى

ليلة : فقالت الاميرة : انى ليسعدنى جداً أن أرى هذا الصانع وأظهر له شيئا مما فى نفسى من الاعجاب والسرور . فاذهب اليه وأحضره .

لقاء الاحباب

فأحضر المعلم صبيه إلى الاميرة ، فما ان رأته حتى صاحت : الامير نور الدين ! حبيب القلب ! أنت الذى أعد هذه الثياب ! انى أمرت بها وأنا أعلم أنه لا يمكن لغيرك أن يعدها . وقد حدثنى قلبى أنك قريب منى ، فى المدينة التى أنا فيها . فقلت لعل طلب هذه الاثواب يكون سببا فى اللقاء ، وقد تحقق أملى . ولن أتزوج سواك

وعرف الملك ابنه نور الدين فسأله قصته فأخبره بما كان منذ أن نزل البئر وتركه أخواه الى أن عاد ، فغضب الملك وكاد يقتل ابنيه لولا ضراعة نور الدين اليه أن يصفح عنهما ، ويزوجهما من الاميرة الكبرى والوسطى .

وفى اليوم التالى أخذت المدينة زخرفها ولبست أبهى زينتها ، وزف الامير نور الدين الى عروسه الاميرة الجميلة ، وعاشا معا فى هناءة ورفاهية وأعقبا بنين وبنات .

عبد الرازق حميدة
المدرس بدار العلوم

الصداقة والخصومة
وأثرهما فى الحياة والادب

للأستاذ عبد الوهاب عثمانى الخطيب

— ١ —

أرجع القهقرى بالذاكرة ثلاثين سنة ، فألمح فى طفولتى المرحة ، صبية متآخين متحابين ، قد جمعت بينهم أواصر القربى ، وتقارب الميلاد ، وأوقات الفراغ ،وكرة المضرب . لا يحمل الواحد منا فى صدره البرىء ،غير محبة الوالدين ، والتعلق بالزملاء اللاعبين الذين يحاول الغلبة عليهم . أو الذين يستعين بهم فى التغلب على غيره ، فاذا ما اجتمعنا فى المكتب ، طغت على الذكى منا سيطرة النبوغ واستعلاء العقل ، بينما يطغى على قوى البنية منا جبروت القوة وسلطان الجسم ، وكثيرا ماكانت تحدث صداقات أو عداوات !!

فى هذه الفترة من الزمن — والطفل فى السابعة من عمره — لا أستطيع أن أحكم حكما صحيحا على وجود الصداقةأو الخصومة ،إلا أننى أؤكد أن الاشخاص الذين ملت اليهم بعواطفى فى هذه السن ، لا أزال أذكر بالاعزاز عهدهم ولا أزال أحمل فى طوايا نفسى لهم حبا واخاء وأؤكد أيضا ، أن الآخرين الذين صدرت منهم

فى حقى كلمة جارحة . أو إيذاء بالضرب أو كانوا مسيطرين بقوتهم ، منتهزين فرصة ضعفى ، ونحول جسدى،هؤلاء لا أفتأ أنظر اليهم نظرة فيها شيء من السخرية إلا من تربطنى بهم علائق القرابة — كما أنى لم أتخذ منهم فيما بعد أصدقاء

لم نكن فى الصغر محتاجين إلى الاخوان إلا بمقدار ما يبعث حب اللعب فى نفوسنا من البهجة والسرور ، لم نكن فى حاجة إلى منفعة ، اكتفاء بما فى بيوتنا من النعمة ، ولم نكن لنستشعر الحزن والالم حتى نطلب العون عليهما من الاصدقاء ، ولم نتذوق طعم الفضيلة والواجب والخير ، حتى نصطفى إخوانا فى كل أولئك

غير أن هناك أناساقد امتزجت قلوبنا بقلوبهم ، واطمأنت نفوسنا الى نفوسهم واجتمعت أهواؤنا وأهواؤهم ، فبادلناهم فى تلك السن المبكرة ، عواطف محبة ، اعتقد أنها كانت بذورا صالحة . لما انعقد بعد ذلك بيننا وبينهم من الصداقة

— ٢ —

واغتربت عن أهلى طلبا للعلم والمعرفة ، ولقيت طلابا صحبت منهم من يقاربنى فى السن أو فى العقل ، أو من ينتسب الى بلدة قريبة من بلدتى ، أو من تتفق رغائبه ورغائبى ، ولقيت طلابا آخرين يحملون فى صدورهم الحسد والحقد لبعض الناس ويكثرون من التكلم فى شأن سواهم على غير مسمع منهم أو مشهد ، فتجنبتهم ،ولم أتخذ منهم خليلا .

وطالت أعوام الدراسة وامتدت ، واختلفت معاهد العلم وتنوعت وتنقلت من مدينة إلى مدينة ، وتخلف من الاخوان من تخلف ، وأتم الدراسة منهم من أتم واستقبلت إخوانا آخيتهم من جديد ، وطلابا لم آبه لشأنهم ، كما هى الحال عند غيرى من الناس .

الاخوان الذين أصطفيتهم فى سنى الدراسة ، — وهم غير المعارف ، يسرنى أشد السرور أن اراهم . أو أرى من يراهم ، أو أن أسمع خبرا سارا من جهتهم ، وبعبارة اخرى لهم فى نفسى منزلة القرابة القريبة ، المعمورة بالمودة والمصافاة ، سواء منهم من لم يتم ، ومن أتم ، وسواء منهم من بعد عن العين ، ومن قرب منها

— ٣ —

وانتقلت من الحيز الضيق ، إلى أفق الحياة ، حياة العمل ، وحياة المجتمع ،وحياة العقل والقلب والبيان .

والإنسان لايعمل مستقلا ، بل إن له شركاء ، وإن عليه رؤساء ، أما شركاؤه ، فيسره أن يبزهم ، كما يسرهم أن يفوقوه ، وأما رؤساؤه فيهمه أن يرضوا عنه ويقدروه، كما يهمهم أن يؤدى واجبه فى طاعة لهم ، واحترام لآرائهم ، على أن يكون عرضة للعقاب إن بدا منه ضعف ، أو ارتكب إحدى الغلطات !! فهو لذلك قلما يتخذ من بينهم صديقا .

الموظف — بحكم الوظيفة — يقضى وقتا طويلا بين هؤلاء ، وهو مضطر — بحكم الإنسانية — أن يختار من هذا الوسط من يأنس منهم — مع وجود روح التنافس — نبل الحس ، ورقة الشعور وكرم المحتد ، وصفاء النفس ، وعذوبة اللسان . أو من فيه صفات مقاربة لصفاته الشخصية من نواحى الميول والأخلاق .

وكلما كان الوسط الذى يعمل فيه الانسان ، خليطا من أناس مختلفى الثقافة ، متباينى الأهواء ، كان ذلك أدعى الى الاحتراس والحيطة ، فى اصطفاء من يصطفى ، ومؤاخاة من يؤاخى . الا أن الشخص المهذب كثيراً ما يكون مرموقا بعين الاجلال والمحبة ، يود كل من زملائه أن يكون له صديقا ، فهم يقابلونه بالبشر ، ويستمعون لحديثه ان تكلم ، ويعاملونه معاملة تشعره بمنزلته ، وتدعوه أن يكون معهم على الدوم ، رجلا مثاليا كريما ، غير ان المعاملة شىء ، والصداقة شىء آخر .

أما البيئة المتقاربة فى العقليات والمعارف ، والرغائب والآمال ، فانه يسهل على الانسان فيها أن يختار من يوافقه من الاخلاء ، ويتجنب من لايرى فى قلبه ميلا ولا هوى اليه . ومع ذلك . فما أكثر مايتعرض الأصدقاء فيها لتطبيق بيت ابن الرومى :

من جور إخوان الزمان سرورهم ∴ بتفاضـــل الأحوال والأخطار

وبحكم العمل ، ينتقل الموظف من مكان الى مكان ، ويضطر الى أن يصاحب

من جديد أنا ساغير الذين أصفاهم بالمودة والاعزاز ، وتمر الايام والشهور والاعوام ويبلى من الذاكرة ما يمكن أن يتطرق اليه البلى من أسماء الزملاء ، وتتركز فى القلوب على مر الايام والشهور والاعوام ، صداقة من منحناهم كل عواطفنا وحبنا ، اننا نهش لذكراهم كلما مرت على خواطرنا سانحة ، ونبتهج لما يصلنا عنهم من خير ، ونبتئس اذا فهم شىء من السوء والمكروه .

— ٤ —

والانسان موجود اجتماعى كما يقول أرسطو — فهو لا يعيش فى المنزل والمكتب فحسب . وانما يتراوح بين النوادى والمجتمعات ، ويرحل من جهة الى أخرى ، ويلقى أصنافا من البشر ، مختلفين فى طباعهم ومنازع أهوائهم ، وألوان ثقافاتهم ، وقد يكون من بينهم أناس أرضياء المحضر — كما يقول أرسطو أيضاً — فهو يأنس اليهم ، ويمنحهم من ذات نفسه محبة واكبارا متى وجد التلاؤم الخلقى بينه وبينهم . بينما يرى أشخاصا آخرين ، فلا يأبه لهم ، ولا يهمه من أمرهم شىء ، بل انه لا يحاول مهما جلس اليهم ، أن يوجد بينه وبينهم سبباً من أسباب التعارف .

الصلة التى تنعقد فى هذه الاوساط ، لا تتأتى بسهولة ، ولا تحكم أواخيها الا بمرور زمن طويل وتجارب عديدة . فاذا ما توثقت عراها ، كانت من أعمق أنواع الصداقات ، وأبقاها على مر السنين .

— ٥ —

من هم هؤلاء الذين تستطيع قلوبنا أن تمنحهم كل ما لديها من تبجيل وتقدير وحب ، وتحتفظ على مرور الزمن بجده مودتهم ، وما عسى أن يكون لهم من الاثر فى حياتنا وآدابنا ؟

لا يتشابه مخلوقان تمام الشبه من جميع الوجوه أبدا . بل لكل ذاتية خاصة يمتاز بها عن غيره من المخلوقات ، وكما تختلف ملامح الاوجه ، ونبرات الاصوات ، تختلف خلجات القلوب ، وموازين العقول ، وكما تتقارب تلك فى رأى العين ، وحجاب السمع ، تتقارب هذه فى مجرى الشعور ، ولون المعرفة

ونحن — بالطبيعة — لانصادق من يشاركنا فى لون البشرة ، أو فى سعة العين وضيقها ، أو فى قنو الانف وانخنافه ، أو فى رخامة الصوت وجهارته ، بل اننا نصادق من يمس احساسنا ، ويشعر كما نشعر ، ويفهم عنا ان تحدثنا ، ويفهمنا اذا تكلم ، ويفى لنا فى السر والعلن ويبثنا ذات نفسه ان كرثه أمر ، كما نستطيع أن نشكو اليه بثنا وحزننا ان أصابنا مانكره .

— ٦ —

ولا ريب أن لاصدقائنا أثراً عظيما فى حياتنا الخاصة ، فاننا نرغب أشد الرغبة فى أن يشركونا فى ألوان السعادة التى تحيط بنا ان أصابنا خير . بل ان سعادتنا لا تتم الا بوجودهم الى جنبنا ، ينفحوننا من عطر مودتهم ، ونبل قلوبهم ، مايسمو بعواطفنا الى أعلى مراتب البشر والحبور .

واذا ضاقت بنا الحيل ، وأعيانا المال ، واشتد بنا الزمن ، وتوالت علينا أحداث الدهر ونوائب الايام ، فاننا كثيراً مانلجأ — ولو مرغمين — الى هؤلاء الذين نتوسم فيهم من اخواننا فضلا من نعمة ، يقاسموننا اياه عن طيب خاطر منهم ، وحسن مؤاساة ، وجميل ماعون . فى غير من ولا أذى ، ولا تعرض لجرح عزة .

وينتابنا المرض ، أو نصاب بفجاءة بحادث مروع أو يتعرض عزيز من أعزائنا لمكروه ، فيكون فى عيادة أصدقائنا لنا وسؤالهم عنا بلسم لقلوبنا أنجع من الدواء علاجا ، وخير من طب الاطباء نتيجة ، اننا نرتاح عندما نراهم ، ونحس برد العافية يتمشى فى أوصالنا ، ولا نشعر . ونحن ننظر اليهم مهما اشتدت علينا وطأة المرض ، ومهما روعتنا الحوادث ، الا بأحلى ماتتذوقه النفوس من ضروب البهجة وألوان السرور .

ونحن نستشيرهم فى كل مايهمنا من أمورنا ، ونقلب معهم أوجه الرأى حتى نطمئن إلى ماينبغى سلوكه من المذاهب المتشعبة ، ونوقن — إذا أخطأنا عن مشورتهم أننا سعداء بهذا الخطأ لأنه نتيجة لآراء أضفى عليها الاخلاص ، والصراحة والصدق خير مايضفى من لآلاء ورواء .

وإذا ملنا عن طريق الهدى ، وسولت لنا نفوسنا النزاعة إلى الشر ، أمرا خارجا عن حدود الأدب والدين والفضيلة ، فاننا لا نجد أصدق من النصيحة يسديها الينا صديق كريم النفس . قوى الايمان ، شديد الحب للخير ، فلا نلبث أن نلق قلوبنا منصاعة إلى هديه ، منقادة معه الى سبيل الرشاد .

ذلك بعض أثر الاصدقاء فى الحياة النفسية ، أما فى الحياة العملية ، فاننا كثيرا ما نرى أصدقاء يسلكون منهجا سويا ، وطريقا واحدا ، فيؤسسون الشركات . وينشئون المصانع والمعامل ، والمتاجر ، ويشتركون فى التأليف أو التعليم ، أو المحاماه . أو الزراعة . أو فيما يشاءون من مناهج الحياة وطرفها وينجحون فى كل عمل يقولونه نجاحا منقطع النظير . لأنه نجاح قوى متضافرة من الحب والصدق والصفاء

— ٧ —

وتدب عقارب النميمة بيننا وبين أصدقائنا . وتقع قلوبنا فى حيرة من الأمر قد تنتهى إلى قطيعة أو جفاء . فيجىء دور البيان والأدب فى صورة عتاب رقيق أخاذ بمجامع القلوب . فلا يلبث أن يؤثر تأثيره السحرى . فيعود الأصدقاء إلى أحسن ما كانوا عليه قبل من المودة والتواصل .

ويفارق الخليل أخلاءه إلى مكان قريب أو سحيق فيأسفون لفراقه ويقيمون له حفلات يجتمعون فيها معه إلى موائد الشاى والخطب والأشعار . فيمتدحون مناقبه ومزاياه . ويشيدون بفضله . ويذكرون الصداقة واعتزازهم بها . وحرصهم عليها وأن الزمن لن ينال منها مهما تقدم . ويشكر لهم الصديق المكرم . نبل عواطفهم فى قصيدة ينشدها أو خطبة يلقيها .

وإذا ما باعدت الأيام بين الصديقين . فانهما كثيرا ما يتلاقيان على صفحات الرسائل التى يدبجها كل منهما لأخيه . باثا شوقه . واصفا حاله . شاكيا ظروف زمانه . مؤكدا عهد الوفاء والاخاء . ويجىء الرد ملاحظا فيه الى كل أولئك . شعور فياض بالغبطة وأسلوب موفق بروائع الأدب شعرا كان أو نثرا

وتنتهى الحيـاة بالناس الى آجالهم المحدودة . ومصايرهم المحتومة . ويبكيهم أقرباؤهم بالدموع والعبرات . بينما تدمى لمصارعهم قلوب أصدقائهم . ويرسلون فى مراثيهم لهم . زفرات تلظى بالوجد والحرقة . وتندلع بالفجيعة والالياع . ويفيد الأدب من وراء ذلك . وتنمى ثروته العاطفية نماء فيه روح للقلوب المكلومة ، وعزاء للأفئدة المقروحة . وشفاء للنفوس الموجعة .

— ٨ —

دونت ما أشعر به فى طوايا نفسى من العواطف الخاصة بالصداقة . وأعتقد أننى لم آت بجديد . فكل انسان يحس ما أحسست . ويخالجه من النوازع ما خالجنى وهـذا موضوع وفاه علماء الاخلاق حقه من البحث . من حيث ماهية الصداقه وأقسامها الأصيلة ومن هم الذين يصلحون أن يكونوا أصدقاء ، وما الحقوق التى للصديق على صديقه .

أما تكوين الصداقة بالأوضاع الحيوية : من الدين والسياسة . والعلم . والأدب . والفن . وصداقة الأسر . والملوك والشعوب . وأثر ذلك جميعه فى المذاهب العقلية والحياة الأدبية من شعر ونثر . والحياة الاجتماعية من تقدم وخمول والحياة الاقتصادية من رواج وكساد . وما يتصل بكل أولئك من أسباب ونتائج فهذا مانحاول بقدر الامكان توضيحه وتبيانه .

— ٩ —

الصداقة رابطة اجتماعية تنعقد بين طرفين .والناس منهم الخير بطبعه . الفاضل بفطرته السليم جوانب الصدر ، المنطوى على حب الله فيمن خلق - ومنهم الشرير بالجبلة الخبيث بالسليقة . المجنى الأضالع على الحقد والحسد . الذى لاتستطيع اسمى المذاهب الاخلاقية أن ترده الى رشاد . ومنهم بين بين : كما قال الحزيمى

الناس أخلاقهم شتى وان جبلوا ٭ على تشابه أرواح وأجساد
للخير والشر أهل وكلوا بهما ٭ كل له من دواعى نفسه هاد
منهم خليل صفاء - ذو محافظة ٭ أرسى الوفاء أواخيه بأوتاد

ومشعر الغدر - مخنى أضالعــه * على سريرة غمر غلها باد
مشاكس جذع ، جم غوائله * يبدى الصفاء - ويخفى ضربه الهاوى
يأتيك بالبغى فى أهل الصفاء ولا * ينفك يسعى باصلاح لإفساد

هذا التباين الواضح فى طبائع البشر . جعل الحكماء والفلاسفة . والشرائع والأديان تنظر الى الخيرين الفضلاء نظرة اجلال وتكريم . بينما نراها نصب مقتها وجحيم غضبها على أولئك الأشرار الأراذل . وتود أن تمحو ماعلق بنفوس الفريق الثالث من ظلمات الرذيلة . لتكون جوانبها كلها وضاءة بأنوار الفضائل الساطعة

ولما كانت الصداقة رابطة بين اثنين كان من الضرورى وجود تلاؤم خلقى بينهما غير أن أفلاطون يرى أن هذه القاعدة العنيفة « الشبيه يبحث عن الشبيه » ليست صادقة الا بالنصف . فان الرجل الخير هو وحده صديق الرجل الخير . أما الشرير فانه لايستطيع ان يعقد صداقة حقيقية لامع الخير . ولا مع الشرير شبيهه . ولما كان الشرير لاثبات له على حال . متغيرا . متخالفا مع نفسه . مضادا لها . كان بعيدا عليه أن يشابه غيره ويحبه . وحيثما اقترب الشرير من شبيهه واشترك معه - صار عدوه حتما - لأنه سيتعدى عليه بعض الشىء - وكيف يكون ممكنا أن يبقى المعتدى والمعتدى عليه صديقين؟

ولكن أليس من الجائز ان يتبادل الأشرار فيما بينهم المنافع - فيعرف بعضهم بعضا ويحتوى كل منهم على رفيقه - فتوجد صداقة مماثلة لصداقة الطبقة المتوسطة ؟ يعود افلاطون - ومذهبه مذهب مثالى رفيع — فيقرر ان الأشرار لا يستطيعون ان يأتلفوا زمنا طويلا - فاذا قاربت المنفعة بينهم لحظة فانها لا تلبث ان تباعد بينهم بل المنفعة التى تساعدها الرذيلة - تسلحهم بعضهم على بعض - وتصبح الجمعية وليس فيها الا اشرار - غير مستطيعة ان تبقى يوما واحدا

على ضد ذلك الفضيلة تدعو بالطبع بين القلوب التى تساوت فى حبها الى المودة والرحمة - وهى كفيل السلام فى المملكة ، ان الأهالى مرتبطون فيما بينهم - لأنهم يسعون جميعا الى الخير الذى فرضوه واجبا مقدسا على انفسهم طول حياتهم

ولكن قلبا كريما لا يكتفى بهذه الرعاية - التى يشعر بها طبعا نحو الذين يشابهونه

بل الفضيلة تلهمه احساسا اصعب من ذلك واعز - فانه لما كان لا يقصر شأنه فى المعاملة على الاختيار - كان لازما عليه ان يعرف كيف يعيش مع الاشرار ولما كان محظورا عليه ان يأتى الشر - كان لا يعمل السيء لأعدائه - كما لا يعمله لأصدقائه - فانه يعرف ان الشر الذى يقع على الاشرار يزيدهم رذيلة على رذيلتهم - وما فعل الشر - حتى بالاشرار الا قاعدة لا يجرى عليها غير الطغاة او المجانين - اما الرجل الحكيم - فانه على الضد من ذلك - يلطف الشرير بما يعمله له من الخير ، او على الاقل بما تضربه له من المثل الصالح من عدالته

ذلك اساس الحياة الاجتماعية عند افلاطون - وخلاصة رأيه - ان الفضيلة التى تتفتح أزهارها فى كنف العدل والرعاية - هى الرابط الحقيقى للجمعية الانسانية وليس من الممكن وجود صداقة مستديمة الا بين الاخيار - وان الفضيلة هى شرط للسعادة فى الجمعية

— ١١ —

اما أرسطو - فقد افرد لنظرية الصداقة الكتابين الثامن والتاسع من مؤلفه العظم علم الاخلاق الى نيقوماخوس

غير ان هناك ابوابا من الكتاب الرابع ينبغى الرجوع اليها قبل الكلام على الصداقة لانها تتصل بها اتصالا وثيقا

جميع الافعال التى مصدرها الفضيلة جميلة - وكل فعل مطابق للفضيلة ملائم هذا كلام حق وجميل وهو قريب جدا من كلام افلاطون

غير ان ارسطو يوضح بلباقة وكياسة ومهارة اخلاق الناس فى المجتمعات فيقسمهم ثلاثة اقسام : فيقول

فى العلاقات المتنوعة التى بين الناس فى حياتهم المشتركة - سواء فى المحادثة البسيطة ام فى الاعمال يوجد اناس يسعون الى ان يكونوا مقبولين لدى الجميع تأخذهم رغبة الارضاء بأن يقروا دائما كل شيء - فاذا لم يقصد الشخص فيهم من وراء الارضاء - الا ان يكون مقبولا فانه يسمى المساير فان قصد ان تعود عليه منفعة

شخصية كالاثراء او الحصول على الاشياء التى تسببها الثروة فذلك هو التخلص

والنوع الثانى . أناس على خلق مضاد لأولئك ، يأخذون بالمعارضة فى كل الأشياء، ويجدون كل مايصنع رديئاً ، وصاحب هذا الخلق ، هو الإنسان الصعب الشكس .

وكلا هذين باللوم جدير . والممدوح هو الوضع الوسط ، الذى يحمل المرء على أن يقبل أو يرفض من الناس أو الأشياء ماينبغى قبوله أو رفضه .

هذا الوضع يشبه الصداقة كثيراً ، لأن الرجل الذى نجده فيه ، هو فى أعيننا بحيث نكون مستعدين أن نسميه صديقا حقا إذا جمع إلى معروفه شعوراً بالميل لنا. ولكنه يخالف الصداقة ، فى أن قلب ذلك الانسان لايشعر بعاطفة البتة . وأنه ليس مرتبطا جد الارتباط بأولئك الذين يلتقى بهم ، لأنه ليس لحب أو لبغض يصطنع الأشياء كما ينبغى بل لأنه هكذا خلق .

انه مع ذلك يكون مختلفا فى علاقاته مع الأشخاص أولى الأقدار ، ومع الناس العاميين ومع الأشخاص المعروفين لديه قليلا أو كثيرا . انه يرعى بهذه العناية نفسها جميع الفروق الأخرى ، مؤتيا كل ذى حق حقه ، ساعيا من أجل ذلك فى إدخال السرور على الغير ، متقيا الايذاء ، ولكنه يقصد دائما الجانب الذى يمكن أن تنتج منه نتائج خطيرة ، وأعنى بذلك أنه لايبحث إلا على الجميل والنافع ، وهو عارف عند الحاجة أن يحدث صغار الآلام تمهيداً فيما بعد للذة كبرى .

— ١٢ —

أما فيما يتعلق بتقدير الانسان لنفسه . من حيث اسباغه عليها صفة من الصفات التى تجعل الرجل نابه الذكر من غير استحقاق ، أو من حيث تناسيه صفة كريمة فيه ، أو من حيث اعطاؤه نفسه حقها من غير غلو ، فان أرسطو يوضح ذلك بقوله:

الرجل الذى بلا مسوغ يبالغ فى الاشياء لفائدته ، يمكن أن يعتبر رذيلا . فان كان كذبه حباً فى الكرامات أو رغبة فى الشهرة ، فانه ليس جد أثيم . فان كذب لنيل المال ، أو مدفوعا بطمع من هذا النوع ، فقد فقد شرفه على وجه أكثر خطورة من الحال الاولى .

هؤلاء الذين يكذبون ليحصلوا على شهرة ليس غير . يظهرون بمظهر الفخر الصلفاء ، وينسبون بالكذب إلى أنفسهم ميزات تستدعى ثناء الناس أو اعجابهم المسبب على الغيرة . وهؤلاء ، سرعان مايجرون على أنفسهم الاحتقار الذى هم به جديرون.

أما الذى يأبى على نفسه ماله من الخلال الحسنة ، أو يصغر من قدرها ، أو يميل إلى البخس دائما من قيم الاشياء ، فانه يظهر على العموم بأنه من خلق أحب وألطف ، إنه يريد أن يفر من كل ما يمكن أن يفضى الى الشهرة .

أما الرجل الذى هو فى عيشته وفى أحاديثه يقول الحق ، دون أن يكون الامر متعلقا بمنافع جدية ، بل لان ذلك فطرة فطر عليها ، فانه فى الواقع رجل نبل ، وإنه إذ يتكلم عن نفسه ، يسند اليها ماله من صفات الخير فلا يجعلها أكبر ولا أصغر مما هية . وهذا الخلق هو على الحقيقة أهل للاحترام .

— ١٣ —

وفى الحياة أوقات راحة ، يلزمنا فيها مايسلينا ، وفى تلك الاوقات يوجد أسلوب من أساليب العشرة ، رقيق الحاشية ، حسن الذوق . حدده أرسطو بأنه ينحصر فى قول ماينبغى كما ينبغى ، وفى استماع قول الغير بهذه القيود ، وقسم الناس أيضاً الى ثلاث طبقات :

فنهم من يدفعهم ديدن الاضحاك الى البحث عن الهذر فى كل مقام . قاصدين أن يضحكوا أكثر من أن يقصدوا ألا يقولوا إلا الاقوال النزيهة المناسبة ، وألا يحرجوا من يمازحونه . ان هذا الذى لايعرف أن يقاوم لذة السخر ، لايبقى على نفسه كمالا يبقى على غيره ، ولكى يحرص على الضحك ، يستبيح لنفسه أشياء لايفوه بها رجل شريف . بل لايطيق سماع بعضها : وذلك الماجن ، السيىء . الثقيل الروح .

وفريق على الضد من ذلك . لايجدون قولا يسر ، ويحقدون على الذين هم أكثر منهم استعدادا للتنكيت ، أولئك هم قوم أفظاظ غلاظ ، غرباء عن علاقات الجمعية فى أوقات ، السرور لايأبهون لها ، ولا ينتفعون بها .

أما الذين دق ذوقهم فى المزاح . فانهم أناس أرضياء المحضر ، يمكن أن يقال

انهم من طبع مرن لين ، لان هذه الصفات هى على وجه ما حركات أخلاقية . فالمهارة أو سلامة الذوق . هى مزية من مزايا الكيف الوسط ، الذى تمدحه فى هذا النوع . فالرجل ذو الطعم ، يعرف أن يقول وأن يسمع ما يناسب الرجل كل الرجل . بحيث لايؤذى من يسمعه وبحيث يلذ على ذلك لسامعه .

وهناك حالات تدعو الى ثورة النفوس ، وانفعال الاحساس ، تظهر فيها الطبائع البشرية بمظاهر ممدوحة أو مذمومة ، من حيث الغضب والحلم والبلادة ، ولم يفت ذلك أرسطو ، بل لقد رسم بقلمه هذه الصور الاخلاقية رسما بديعا حيث يقول :

ان الناس الذين هم على خلق شرس ، يغضبون ممن لايستحقون الغضب ، وفى فرص لاينبغى فيها الغضب وانهم ليجاوزون فى غضبهم الحد اللائق ، نعم انهم يهدءون كذلك بغاية السرعة . وهذا هو أحسن مايصنعون ، فاذا وقعوا فى هذا الخطأ ، فذلك لانهم لايعرفون أن يكظموا غيظهم انهم يستشيطون غضبا فى الحال باظهار شهوتهم ، بسبب ما بهم من شدة فى حده الاحساس الذى يهيجهم على ذلك فالغضاب هم أو لوحدة مفرطة ، فهم يهيجون لكل مناسبة . وضد كل انسان . ولكن الحقاد هم أصعب رجوعا إلى الصفاء : وغضبهم يبقى زمنا أطول ، لأنهم يعرفون أن يضبطوا إحساسات قلوبهم . ولا يهدءون إلا بعد أن يأتوا من الشر مثل ما أوتوا فالانتقام هو الذى يسكن غضبهم لأنه يحل اللذة محل الألم ، الذى كان ينهش قلوبهم . وما لم يشف عليهم فلا يزال على قلوبهم ثقل يضايق أنفاسهم ، ولكونهم يحرصون على عدم إظهار شىء فلا أحد يستطيع علاجهم بالاقناع وإنه لابد من زمن لأجل أن يقرض أحدهم غضبه فى نفسه ، أولئك هم شر الناس على أنفسهم ، وعلى أشفق أصدقائهم بهم .

أما أولئك الذين يبقون بلا غضب للأمور التى يلزم الشعور فيها بغضب حقيقى فانهم لايمكن أن يعتبروا إلا بلداء ، ان هذا الذى لايغضب . لايظهر أن له احساسا ولا يعرف أن يثور عند ما ينبغى بل يمكن أن يظن به أنه لايعرف أن يدفع عن نفسه عند الحاجة . مادام لايشعر بشجاعة ، غير أن هذه الحال إنما هى جبن حقيق

بعبد يحتمل الاهانة تقع عليه ويترك أقرباءه موضوعا للاعتداء بلا جزاء

حينئذ هذا الذى يتمشى مع الغضب فى الغرض المناسبة . أو ضد النـاس الذين يستحقونه . وهو على ذلك يتمشى على الوجه اللائق . وفى الحين اللائق . وطول الوقت اللائق ، ذلك يجب أن يقابل باقرارنا إياه ، فليعلم حقا أن هذا هو الحلم الحق . إذا كان الحلم أهلا للثناء.

— ١٥ —

عندما نريد أن ندرس أخلاق من نريد أن نتخذهم أصدقاء ، ينبغى أن نرجع إلى هذه الفصول الأخلاقية الدقيقة المحكمة . التى وضعها أرسطو ، لنتبين إلى أى حد يمكن تطبيقها عليهم ، ولنستطيع فيما بعد ، أن نقبل أو نرفض من الناس من ينبغى قبوله أو رفضه ، حتى لانتخدع ولا نصحبهم على دخن ، ولا نمنح قلوبنا أناساً لا يستحقونها . فندم آخر الامر ، ونقطع حبال موداتهم مرغمين ، ونرمى بالغدر والعقوق ، بينما نكون نحن فى منتهى الاخلاص والوفاء .

عبد الوهاب عنانى الخطيب

الفهرس